د. مصطفى وينتن د. محمد باباعمي

أصول الإيمان

التوحيد ووحدة الأمة

كتابك
Kitabook

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

دار الفكر

آفاق معرفة متجددة

60

عاماً في خدمة الثقافة

١ - أسست عام ١٩٥٧ (١٣٧٦هـ)

٢ - رسالتها :

العمل في مجال الإبداع الفكري والثقافي: من خلال نشر الكتب الورقية والإلكترونية بالوسائط المتعددة وأية أوعية أخرى للكلمة، وتوزيعها، والترويج لها.

٣ - رؤيتها :

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار وضرورة التعدد.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مد الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي في المجتمع.
- إطلاق طاقات الطفولة، سبيل الارتقاء، واطراد التقدم الإنساني.
- الاستعانة بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير والأبحاث والترجمة.
- إعداد خطط النشر، والإعلان عنها دورياً.

٤ - خدماتها :

- بنك القارئ النه[illegible]عه في الوطن العربي).
- احتفال سنوي باليو[illegible]كتاب ٢٣ نيسان.
- مهرجان سنوي للقراءة والإبداع تحت شعار: جيل يقرأ.. جيل يبني!!
- جوائز ودورات تدريبية للقارئ الصغير والناشئ المبدع.

٥ - منشوراتها :

تجاوزت مطلع عام ٢٠١٧م (٢٤٩٠) عنواناً، تغطي معظم فروع المعرفة.

٦ - جوائزها :

- حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢، من الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- **نالت أربع جوائز من مؤسسة التقدم العلمي في الكويت، عن كتبها:**

- الجراحة التنظيرية :	مينيروـج وآخرين، ٢٠٠٠م
- هروبي إلى الحرية :	علي عزت بيغوفتش ٢٠٠٢م
- موجز تاريخ الكون :	د. هاني رزق ٢٠٠٣م
- الجينوم البشري :	د. هاني رزق ٢٠٠٨م

للمزيد من المعلومات زوروا موقعنا على الإنترنت: www.fikr.com

مكتبة محمد بن موسى باباعمي
المكتبة الوقفية

أصول الإيمان : التوحيد ووحدة الأمة / مصطفى وينتن ، محمد باباعمي. - دمشق: دار الفكر، ٢٠١٧.- ١٨٤ص ؛ ٢٤سم.
ISBN : 978-9933-36-001-6
١- ٢١٧.٧٧ و ي ن أ ٢- العنوان ٣- وينتن
٤- باباعمي مكتبة الأسد

د. مصطفى وينتن		د. محمد باباعمي

أصول الإيمان

- التوحيد و وحدة الأمة -

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

دار الفكر

آفاق معرفة متجددة

60

عاماً في خدمة الثقافة

أصول الإيمان

التوحيد و وحدة الأمة

د. مصطفى وينتن د. محمد باباعمي

الرقم الاصطلاحي: ٢٤٨٧،٠١١

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-36-001-6

الرقم الموضوعي: ٢١٤ (العقيدة وأصول الدين)

١٨٤ ص، ١٧ × ٢٤ سم

الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

جميع الحقوق محفوظة

دار الفكر - دمشق ☎ 00963 11 3001

دار الفكر المعاصر - بيروت ☎ 00961 1 860 739

http:/www.fikr.com - e-mail:fikr@fikr.net

عالم بلا فيتو!

2017 | 1438

المحتوى

تصدير ٧

مقدمة ٩

ضرورة الإيمان ١٣

أصول الإيمان : (نحو عرضٍ جديدٍ للتوحيد، مؤسَّس على المتَّفق بين المسلمين) ١٥

توحيد الأصول العقدية ودوره في تحقيق وحدة الأمة ٢٣

الوحدة في توحيد الأصول الإيمانية ٥٥

الإيمان ومعضلة المنهج ٦٣

معضلة المنهج ٧٢

روح الإيمان، وحقيقة الفرقة الناجية ٧٧

ترسيخ وحدة الأمة : الدرس العقديُّ نموذجاً ٨٦

الأصول العقدية المؤسِّسة للوحدة ٩٥

القواعد الكليَّة في المنهج العقديِّ ١١١

أخطاء في المنهج من مصادر علم الكلام ١١٨

مقالات في أصول الإيمان ١٢٣
سذاجة الإلحاد ١٢٣
الطحالب الآلهة! ١٢٧
لَا إِلَهَ إِلَّا الله، الكلمة الطيبة ١٣٠
لَا إِلَهَ إِلَّا الله، في عين الرسول عليه السلام ١٣٦
لَا إِلَهَ إِلَّا الله، حقيقة المعرفة وأصل الوجود ١٤١
يا ساهر الليل... قمِ الليل ١٥٠
الطفل والمدينة ١٥٤
متى تخلف المسلمون؟! ١٦٠
الخوف المتأرجح ١٦٣
وهمُ الاكتمال، وحبُّ التملُّك ١٦٦
مسرد المصطلحات والمفاهيم العقدية والمنهجية ١٧٣

تصدير

تتطلَّع الأمَّة الإسلاميَّة اليومَ إلى منظومة معرفيَّة صادقة، تحقِّق لها مداخل دقيقة لوعي الذات وفهم الآخر، ومن المؤكَّد أنَّ المشاريع التي تحمل رسالة قرآنيَّة توحيديَّة؛ هي من أبرز وسائل هذه المنظومة. وكلُّ عمل يهدف إلى التأثير والتأثُّر، ينبغي ألا يكون إلَّا لبنة في هذا الإطار، يؤسِّس لبديل فكريٍّ معرفيٍّ، يتجاوز ما كرَّسته السياسات بمختلف مشاربها عبر التاريخ.

وما عُرف في تراث الأمة من المؤتلف والمختلف؛ يدلُّ في شقِّه الأوَّل على وحدة أصول المسلمين ووحدة مصيرهم، وفي شقِّه الثاني على ثراءٍ وتنوُّعٍ، يَعرف للآخر قدره، ولا يدَّعي الصواب المطلق.

فالاجتهادُ العلميُّ في هذه السبيل حريٌّ أن ينقل العقل المسلم إلى مكانته الحضاريَّة التي خلق من أجلها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

أوَّل صلة بين الله تعالى وعباده، وأعظمُ وشيجة يجب أن تكون حاضرة وقوية في كلِّ حال وآن؛ هي: "صلة الإيمان"؛ ذلك الإيمانُ الذي ينبغي أن يصل إلى درجة اليقين ويثمر العمل الصالح؛ ومن أجلِّ الأعمال الصالحة أن نسعى إلى الربط بين عباد الله تعالى برباط الأخوَّة الخالدة، التي لا تنقطع أواصرها مهما بلغت شدَّة دواعي الفُرقة، ومهما اشتعل أُوار أسباب التمزُّق؛ لأنَّ المحن والفتن من سنن الله تعالى، لا تزيد المؤمن إلا تشبثاً بإيمانه، وتثبيتاً وترسيخاً لمبادئه؛ فلا يمكن لتصوُّر عابر ونزَقٍ غير مؤسَّس أن يجتث الكلمة الطيبة والقناعة الراسخة من جذورها، ويحيلها أعجازَ نخلٍ خاوية، بين لحظة وأخرى.

ذلك أنَّ وحدة المسلمين همٌّ حمله الكثيرون مِن المخلِصين، وولجوا إليه مِن أبوابه العديدة والمتعدِّدة، ثم نظروا إليه نظرات مختلفةً، ولكن غير متباينة؛ فالجميع يرجو تحقيق أعظم مقصد في الإسلام، أن يكون الناس أمَّة واحدة، وصورةً حيَّة، وتمثُّلاً صادقاً لقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠]. ولقد فوجئ الجميع بأسباب التثبيط المتلوِّنة أمامَ هذا المقصد الجليل، وبالعقبات الكؤود كلَّ مرة؛ ولكن، "يبقى الأمل، ويرحل المؤمِّل"، ليأتي مِن بعده من يحاول مرة ومرات.

ونحسب أنَّ عمَلنا الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم، ونحمِله إلى أطياف أمَّة الإسلام على اختلاف زوايا نظرها إلى الموضوع، نحسبه إضافةً نرجو أن تزيد في دفع وتيرة التفكيرِ الجدِّي في موضوع تجسيد وَحدة الأمّة، وبنائها على أسسٍ من العلم والعمل، بمنهج يتبنى صواب التجاربِ المتقدِّمة، ويستبعد تكرار الأخطاء السابقة، ويستشعر ثقل المسؤولية، ويتيح للأمة أن تخطو خطوات في الفعل بعد طول القول وكثرته.

وتبقى مسؤولية تجسيد وحدة الأمَّة عامرة بها كلُّ الذمم؛ لأنَّ للجميع نصيبه من الإنجاز. هي مسؤوليةٌ لا تعفي أحداً باعتبار المستويات العلمية والفكرية، ولا تبرِّر لأحدٍ باعتبار الموقع والمكان والمكانة في المجتمع.

ومهما بحثنا عمن يتحمل عبء عودة الأمَّة إلى وحدتها، فلا نجد خيراً من العلماء وأهل العلم؛ ذلك أنَّ الفُرقة أوَّل ما كانت، وأوَّل ما نشأت، بسببٍ من اختلاف الرؤى والتفسيرات، والولاء للعصبيات المذهبية والانتماءات.

فإذا كان الداء من نافذة سوء استعمال العلم بحثاً، ومن باب فساد التفكير منهجاً، فلا يصلح أن يُنتظر الدواء من غير إصلاح الأسباب والمصادر، فكأنَّ هذا العمل يحمل فكرة إلفات نظر أهل العلم أن يرحموا أمَّتهم، ويتحمَّلوا مسؤولية رفع هذا الغبن عنها، عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/١١].

فالكتاب موجه أولاً إلى أهل العلم؛ لينظروا ما هم فاعلون في الموضوع، وهو يخاطب فيهم صدقَهم وصفاءَ نياتهم، ويستثير فيهم حبَّهم لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين جميعاً؛ ولنتساءل بضمائرنا قبل ألسنتنا:

متى نسمو إلى المقام الرفيع الذي ينادينا إليه داعي الإيمان، في قوله تعالى للمؤمنين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٢]؟.

ولقد اكتوت الأمَّة طويلاً مِن آلام الفُرقة وتداعياتها، وما تزال تدفع أثماناً باهظة على يد أبنائها، في غمرة الصراع المختلَق والمتكلَّف بينهم، وفي حمأة التنازع الذي ينساق إليه من سوَّلت لهم أنفسهم أنهم يدافعون عن حقٍّ، ويستبسلون في سبيل واجبٍ، والواقع أنهم في كثير من الأحيان وقعوا أدوات طَيِّعة، وبكلِّ جود وسخاء، في قبضة من يُملون عليهم: "أن دمِّروا بيوتكم بأيدكم، لا بأيدينا"، وهم لا يعلمون، ولا يفقهون، ولا يعتبرون.

ومنذ أمد كان هذا المشروع أملاً حتى صيَّره الله تعالى عملاً، وكان انشغالاً حتى تحوَّل - بفضل الله تعالى - إنجازاً، وكان همّاً مشتركاً حتى جعل الله له مخرجاً؛ فجاء بعنوان مباشر، واضح، مثير للفكر، وهو: "**أصول الإيمان: التوحيد ووحدة الأمة**".

هذه فكرةُ الكتاب، وهذه قصَّته؛ إذ جمعنا الله تعالى - في تأليفه - وله الحمد والمنة، وجعل البحث العقديَّ قاسماً من بين القواسم المشتركة الكثيرة بيننا، وله الثناء الحسن؛ وتتوارد الأفكار على منهج معالجة الموضوع بيننا، وعلى الوصول إلى وَحدة في تناول الوحدة. لا تلك الوحدة القاتلة للفوارق، ولكنها الوحدة الجامعة المؤسَّسة على جلال التوافق، وجمال التنوع.

فقد حوى الكتاب في شطر منه دراسة "**أصول الإيمان**" التي عليها تُبنى الوحدة، وبحث كيفية رجوع الأمَّة إليها باعتبارها سبباً للوحدة "ونحن في ذلك نقرُّ بتقليد المذهب في الفروع، لا في الأصول؛ ونعتبر المذهبية دليلاً على سماحة الإسلام، وعلى سعته؛ لا حجَّة على تشتُّت الدين وأهله"، ونفرِّق بين "أصول الدين" الجامعة، و"أصول المذهب" المشروعة.

ولقد تضمَّن الكتاب في شطره الثاني "**مقالات في تحليل واقع الأمَّة**"، وموقفها من أصول إيمانها، من خلال دراسة نماذج من التصرفات

والتصورات، وتقديم تصحيح لها، في حدود السجالِ العلميّ، تحت راية الفكر السمح المنفتح على التداول والحوار.

كما سجلنا استثماراً من بين ثنايا مضمون الكتاب قوائمَ نحسبها "قواعد كليّة" منهجية في التعامل مع البحث العقديّ، وحصراً لجملة من "الأخطاء المتعلقة بالمنهج" عند دراسة العقيدة وعلم الكلام، وأتممنا كلَّ هذا "بمسرد مفاهيمي" في الموضوع.

هذا، ونسأل الله تعالى القبول والمغفرة من الزلل والتقصير، وأن يكون لهذا السِّفر ما بعده من سفَر، وأن يفتح له أفئدة أهل العلم والعمل، فنكون بذلك قد أسدينا - جميعاً - معروفاً جميلاً إلى هذه الأمَّة الخيِّرة، عسانا نقوم ببعض واجبنا نحو ديننا وأهلينا وأوطاننا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

د. مصطفى وينتن **د. محمد باباعمي**

الجزائر المحروسة

١٦ جمادى الأولى ١٤٣٧هـ / ٢٢ فيفري ٢٠١٦

ضرورة الإيمان

هل الإيمان ضروري لحياة الإنسان؟

أم هو من التحسينيات فقط، لا يرقى إلى الضروريات؟

إنَّ البناءَ الفكريَّ والسياسيَّ والثقافيَّ للأفراد والأمم اليوم يُدني من قيمة الإيمان، ولا يعدّه أساساً لحياة البشر؛ ولذا فإنَّ "العلمانية الشاملة"[1]؛ وهي الديانة الجديدة لأغلب البلاد التي تخيِّر المواطن بين أن يؤمن أو لا يؤمن، بين أن يؤمن بإله واحد أو بآلهة متعدِّدة... إنها قضية اختيارٍ شخصيٍّ، لا علاقة للدولة فيه، لكنَّ ذات الدول تحرِّم المساس بالدولة، وبمقوِّمات الدولة، وترصد لذلك عقوباتٍ قاسية، فتجعل من خانَ أرضه ووطنه أخسَّ دركة ممن خان ربَّه ودينه، بل قد تعلي من مقام من ألحد، أو أشرك، أو تلاعب بالدين... من قبيل حرية الرأي، وحرية المعتقد...

وما من شكٍّ أنَّ الشقاء والفتن، والقلق والكآبة، وجميع الأمراض النفسية التي عرفتها البشرية من قبل، أو لم تعرفها... كلُّ هذا بات يهدِّد كيان

---

(١) العلمانية الشاملة: "هي رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامَّة وحسب، وإنما تفصل كلَّ القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن كلِّ جوانب الحياة العامَّة في بادئ الأمر، ثم عن كلِّ جوانب الحياة الخاصَّة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تماماً عن العالم، بحيث يتحول العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية" - المسيري، عبد الوهاب: العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية؛ الفصل الأول، إشكالية التعريف، ص٢٩ وما بعدها.

الدول، شرقيِّها وغربيِّها، فكثرت الانتحارات[1]، والاغتيالات... وليس لذلك من تفسير إلَّا أنَّ هؤلاء باتوا أحوج ما يكونون إلى "دين" يحميهم، وإلى "ربٍّ" يلوذون به، وإلى "رحيم" يجأرون إليه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٢].

فهؤلاء مهما كان معتقدهم، ومهما ادّعوا من "تحرُّر" ومن "جحود"، ومهما تخرَّصوا في نفي الإله، وفي التشكيك في دين الله تعالى، لا بدَّ أنَّ الفطرة التي بداخلهم ستستيقظ لحظة الشدَّة، ويؤوبون إلى الله حينها "مُخلصين له الدين"، أي إنَّ هذه الإنابة تكون بإخلاص شديد، لا يشوبه شكٌّ أو ريب... ذلك أنهم عاينوا الهلاك، وتيقنوا من الموت والدمار...

فلو أنَّ الناس بقوا على هذه الفطرة، ولم ينحرفوا بفعل الغرور، والميراث، والادِّعاء، والجهل، والمصالح... لكانوا جميعاً مؤمنين، وما ذلك إلَّا لأنَّ دين الله تعالى هو دين الفطرة، ينسجم معها وتنسجم معه، يستريح لها وتستريح له.

من هنا كان الدين ضرورة للإنسان، في جميع الأحوال، لا ينفكُّ عنه؛ لهذا "وُجدت مجتمعات بلا علم، ولكن لا يسجِّل التاريخ وجود مجتمعات بلا دين"[2] ولا إيمان ولا توحيد.

---

(١) نشرت منظمة الصحة العالمية تقريرها لعام ٢٠١٥م، حول إحصائية الانتحار في العالم، وذكرت أنه في كلِّ ٤٠ ثانية ينتحر شخص في العالم على الأقلِّ.

(٢) يقول المؤرخ الإغريقي بلوتارك: "قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد".

أصول الإيمان
(نحو عرضٍ جديدٍ للتوحيد، مؤسَّس على المتَّفق بين المسلمين)

ما هو الحدُّ الأدنى الذي يلزم المسلمَ علمُه من إيمانه، وعقيدته، وتوحيد بارئه؟

يوظِّف العلم عبارة "ما لا يسع الناس جهله طرفة عين"، أي إنَّ "حكمَه على الفور"، فمتى ما لزمت الحجَّة لزم الاعتقادُ، بلا استرخاءٍ ولا تردُّد ولا تسويف.

فمثلاً، لو كنت إنساناً تعيش في بلد لا يعرف أهله شيئاً من الدين، ثم جاء من نبَّهك إلى أنَّ لك ربّاً، وأنَّك مخلوقٌ، ووصف لك هذا الربَّ بصفات الكمال؛ فلا ريب أنَّ ذلك "المعبِّر" والمبلِّغ سيصادف أذناً وسمعاً في قلبك لما عبَّر لك به، ما لم يكن فيكَ جحودٌ سابق؛ ذلك أنَّ الإيمان فطريٌّ في الإنسان، ما لم يتهجَّم عليه مشوِّه ومانع يُفسد تلك الفطرة، ويبعثها على الكبر والمعاندة.

غير أنَّ الكثير من الشباب، وطلبة العلم، بل وكثير من شرائح المجتمع المشتغلة بغير علوم الشريعة، تجد عنَتاً شديداً في التمييز بين "أصول العقيدة" و"فروع العقيدة"؛ ولقد يُعلُون من مسألة خلافية، مما جرى على عادة المذهب المتَّبع، بخاصَّة حين يكون ثمة سبب للخلاف والجدل، كأن

يكون معاشِراً لمسلمين آخرين من مذهب مغاير، فتتحرَّك فيهم الحميَّة والعصبيَّة، ويقودون نقاشات لا آخر لها في الفروع، وفي المسائل التي يجوز الاختلاف فيها؛ ولقد تبقى حقيقةُ الإيمان باهتة لديهم، لا تحرِّك فيهم وجداناً، ولا تبعث فيهم عملاً.

ولو أنك فتحتَ مصدراً في "علم الكلام"، فإنَّ الكثير مما يرد فيه يكون من "أصول العقيدة"، وفيه كذلك الكثير مما هو "فرعٌ في العقيدة"، ولكن ليس لدى الكثيرين العلمُ الكافي للتمييز بين الأصل والفرع.

فمصطلحاتٌ مثل "القطعي والظني"، و"ما لا يخطَّأ فيه وما يخطَّأ"، و"قيام الحجة وعدم قيامها"، و"ما يضيق وما يتسع".. وغيرها من المفاهيم والعبارات التي ترد في المصادر، جميعها تنبهنا إلى ضرورة التمييز بين ما ينجو به الإنسان عند الله تعالى، وما هو من نافلة العلم، يخصُّ العلماء المتخصِّصين في علم الكلام، ولا يعني غيرهم في شيء.

وهل الإيمان مذهبيُّ النزعة، أم أنه متجاوز لحدود المذهب؟

لا بدَّ أن نقرَّ أنَّ الإيمان الذي جاء به القرآن الكريم، وأقرَّه سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، وجرى على لسان الصحابة الكرام والتابعين؛ هو فوق الانتماء المذهبيّ؛ كيف لا والمذاهب قد تشكَّلت بعد أن أتمَّ الله تعالى دينَه، وأنزله على عبده، وأشهد الناس أنه قد بلَّغ، فشهِدوا بذلك ولم ينكر أحدٌ منهم؛ ولو كان الحدُّ المذهبيُّ شرطاً أساساً في الإيمان، لقُلنا: إنَّ الدين لم يكتمل إلَّا حين تشكَّلت حدود ذلك المذهب؛ ولذا فالمذاهب جاءت لتقرَّ قاعدة ذهبية، وهي "**شرعية الاختلاف فيما يسع الاختلاف فيه**"، بل لو لم يكن الأمر كذلك، لكان ديننا أشبه بإيديولوجية جامدة، لا تصمد أمام تقلُّبات الزمان، وتبايُن المكان، واختلاف أحوال المكلَّفين؛ ومن ثم فإننا نقرُّ بتقليد المذهب في الفروع، لا في الأصول؛

ونعتبر المذهبية دليلاً على سماحة الإسلام، وعلى سعته؛ لا حجَّة على تشتُّت الدين وأهله.

ولقد اعتادت كتب الملل والنحل، والكثير من كتب العقائد، أن تبدأ بحديث اختلاف الأمَّة إلى نيف وسبعين فرقة، **"كلُّها في النار إلا واحدة"**؛ وكلُّها على ضلال إلَّا فرقة واحدة؛ والعادة عند هؤلاء أن يشرعوا في تقسيم متكلَّف للفرق، حتى يبلغوا بها العدد المرجوَّ، ثم ينتهوا إلى أنَّ فرقتهم ومذهبَهم هو الذي ينجو، وهو الذي في الجنة، وأمَّا غيرهم فهم على ضلال؛ رغم أنَّ الحكم على الآخَر المسلم يختلف من عالم إلى آخر، ومن فرقة إلى أخرى؛ في الحدَّة والتبديع والتفسيق، بين موسِّع ومضيِّق.

غير أنَّ النصوص الصريحة في القرآن الكريم، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام؛ وتاريخ المسلمين، وواقعهم؛ لم تربط بين الانتماء والحقِّ، وإنما جعلت **"الخيرية رهينة بصفاتها"**، فالصدق صدق مهما كان مصدره، والضلال ضلال كيفما كان مورده؛ وبهذا نجد أنَّ الحقَّ يتوزَّع على أمَّة الإسلام، ففي كلِّ مذهب وفرقة (ممن لم يشذَّ عن الأصول طبعاً)، في كلِّ منها مؤمنون، خيِّرون، موفَّون؛ وفي كلٍّ منها فسَّاق، ومنافقون، ومضيِّعون لدين الله؛ ولا ريب أنَّ المذهب والانتماء لا يشفع للعاصي، ولا يبرِّر له؛ وهو كذلك لا يكون سبباً لعدم القبول من الطائع، لمجرد أنه منتمٍ للمذهب الفلاني، أو الفرقة العلانية.

ولقد تعيَّن واجبُ قول الحقِّ، والصدع بالحقِّ مهما كانت تبعاته؛ للخروج من دائرة الصراع والتشنج والجدل العقيم؛ إلى فسحة الإيمان والإسلام في نقائه وصفائه؛ ولا يكون ذلك بالتنكر للمذاهب، ولا بالاشتغال في بيان أخطاء الماضين والآخرين، وإنما يكون بمنهج بنائيٍّ قرآنيٍّ راشد؛ يدعو "الخيِّرين" جميعاً، بغضِّ النظر عن انتمائهم، إلى أن يكونوا صفّاً واحداً، في مواجهة الشرِّ كلِّه، من أيِّ نوع كان؛ ويفتح المجال واسعاً لمن أخطأ في العودة إلى الصواب؛ على النهج المكيِّ الشبيه بحالنا اليوم؛ وهل

يمكننا أن ندَّعي أننا نعيش مرحلة شبيهة بمرحلة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة؟

من هنا جاءت فكرة الكتابة في "أصول العقيدة والتوحيد والإيمان" ؛ أي فيما اتفق فيه علماء الأمّة، ولم يختلفوا في ثبوته ولا في دلالته، ولم يكن معرض تأويل أو محلَّ رفض للتأويل؛ ولذا يكون منهج الإلزام أوَّل منهج نتحلَّل منه، و"لازم القول ليس بقول"، وإنما المعتدُّ هو صريح القول، ولو وجدنا عذراً أو تأويلاً لأحد، قدرَ قطمير، فإننا نعذره؛ لا نقوِّله ما لم يقل، ولا نحمِّله ما لا يحتمل؛ والضابط في ذلك هو أنَّ الأصل هو الصواب، وهو الخير، وهو إرادة الحقّ؛ وأمَّا الخطأ، والشرُّ، وإرادة الباطل؛ فهو عرَض تابعٌ عند من أعلن إسلامه، وبان وفاؤه وحبُّه للإيمان، وصدقُه في العلم والعمل.

ولا بدَّ أن ننبِّه إلى أنَّ المزالق عن الإيمان والتوحيد اليومَ، ليست هي نفس المزالق والانحرافات التي وردت في المصادر التراثية؛ فتحديات المناهج، والفلسفات، والإيديولوجيات، والأفكار المصنوعة بعناية، في مخابر دولية متطورة، والمسوَّقة باحترافية شديدة؛ هذه التحدِّيات، هي التي تنخُر في قلوب الشباب والشابات، وهي التي تسوِّس وجدانهم، وتصنع منهم نسخاً مشوَّهة مِن "الإنسان" ؛ أي أوعية لا تصلح لتلقِّي شرع الله تعالى، بخاصَّة ما ارتبط منها بالتوجُّه الماديِّ الإلحاديِّ، وبالحداثة وما بعد الحداثة[1]، وبالعبثية، ونظريات الفوضى، ونهاية المعنى، والتاريخانية، ومحاولات تغييب المعيار والثابت والمركز...

(١) في مقال بعنوان "الحداثة ورائحة البارود" يقول المسيري: "الحداثة الداروينية لها أثرها في نسيج المجتمع، وفي منظوماته الحاكمة.. ولنذكر بعض الظواهر الاجتماعية السلبية المختلفة: تآكل الأسرة - تراجع التواصل بين الناس - الأمراض النفسية - تزايد الإحساس بالاغتراب والوحدة والغربة - ظهور الإنسان ذي البعد الواحد...".

ولقد قامت الحجة على العلماء قبل العامَّة، ذلك أنهم مأمورون بمخاطبة الناس بما يفهمون، وبفهم ما يعتلج في صدور الناس من أفكار، وما يتهدَّدهم من نظريات منحرفة، وخرافات متقنة السبك فعَّالة؛ وإذا ما خاطبوهم بلغةٍ لا يفهمونها، كان ذلك من قبيل "التكليف بما لا يطاق"، ولقد يتحوَّل إلى وسيلة للتنفير من الحقِّ عوض الدعوة إليه؛ ولذا اشترط القرآن الكريم أن تكون الدعوة ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥]، أي "بالتي هي أحسن" لا بالتي هي أخشن.

الإيمان منهج وموضوع:

يعتقد البعض أنَّ الإيمان موضوعٌ فقط، فهم حتى إذا لم يصرِّحوا بذلك، إلَّا أنهم يعتمدون مناهج عقيمة في عرض التوحيد والتأليف فيه؛ ومن ذلك مثلاً، اعتماد الكثيرين على "المنطق الأرسطي التقليدي" في الاستدلال، أو هم يزنون النصوص القطعية بهذا الميزان، ويحمِّلونها ما لا تحتمل.

والقاعدة العلمية تقرر أنه "إذا كان إدراك الحقيقة على ما هي عليه في الواقع علماً، فإنَّ المنهج المتخَذ إلى ذلك الإدراك ينبغي أن يكون هو كذلك علماً"[1].

فالعقيدة كما وردت في كلام الله تعالى، بمواضيعها ومناهجها، كثيراً ما تغيب عن مصادر علم الكلام؛ التي تعالج المسائل الخلافية غالباً، إلى جانب مسائل الاتفاق طبعاً؛ وهو ما يسمى "الأصول الستة"، أو "الأصول التسعة"؛ فيتوسَّعون فيها، ويرجِّحون، ويجادلون، ثم يلزمون الناس بما انتهت إليه آراؤهم، وقد لا يكون ذلك من قبيل الإيمان القطعيّ، ولكن من نوع الجزئيات والافتراضات الإلزامية الظنية، والقاعدة الذهبية تقرِّر أنَّه "**لا تخطئة في ظنيّ**".

---

(١) سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية؛ ص٣١.

خذ مثلاً موضوع خلق القرآن، أو رؤية الله، ثم تتبعه في المصادر القطعية "القرآن الكريم، والسنة المتواترة"؛ فستجد أنه لم يرد بهذا الحجم الهائل، ولا بهذه المحورية المركزية، ثم حتى في القليل من الآيات التي عالجته، نلاحظ أنه لم يرد بصيغ منهجية جدلية إلزامية؛ ولم يرتبط به مصير الإنسان.

وهكذا، عوض أن يهتمَّ المسلم - مثلاً - بتمثُّل أحكام القرآن وأخلاقه، راح يجادل في كونه قديماً أو محدثاً، ثم زاد إلى ذلك أنه صنَّف الناس إلى ناجٍ وهالك، بناء على رأيه واعتقاده في هذه المسألة.

ثم إنه، عوض أن يركز على كون الله تعالى يراه، ويرتب على هذا الإيمان عمله الصالح وإحسانه: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]؛ عوض اتباع هذا السبيل القرآنيِّ النبويِّ السليم، نجد الكثير - بخاصَّة من المتطفلين على العلوم الشرعية - يتجادلون في رؤية الله تعالى، ويفسِّقون ويبدِّعون ويضلِّلون مَن يعتقد خلاف رأيهم.

لا ننكر أنَّ التراث الكلاميَّ نفسه يحمل بذور هذا المنهج الجدليّ، ولكن ندعو إلى تخطِّيه، وإلى التسامح مع تلك المرحلة التي علا فيها الجدل، وقلَّ العمل، وكانت إمَّا سبباً مباشراً لتخلُّف المسلمين، أو نتيجة لهذا التخلُّف في ظروف أخرى.

ولقد ثبت - بما لا يدع مجالاً للريب - أنَّ هذا الجدل العقيم لم يقدِّم خطوة في واقع المسلمين، ولم يحملهم على الإيمان الدافع إلى العمل

---

(١) رواه البخاري ومسلم، من حديث أبي هريرة. يقول الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: "هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ؛ لأنا لو قدَّرنا أن أحدنا قام في عبادة الله وهو يعاين ربَّه - سبحانه وتعالى.- لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع، والخشوع، وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلا أتى به..." ١/ ١٥٧-١٥٨.

الصالح؛ فكانت النتيجة أن ذلَّت الأمَّة، ووهنت أركانها، وشاخت أفكارها، فصارت ذيلاً لغيرها.

إذن، ينبغي لنا أن نعتمد القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة منهجاً وموضوعاً، في التأليف العقديِّ، وأن نبتعد ما استطعنا عن حدود التماس والخلاف بين المسلمين خاصَّة؛ لنعمل على معالجة الخلاف بين الإيمان والكفر، بين الحقِّ والباطل، بين الخير والشرِّ؛ لا بين رأي ورأي، وحكم وآخر، مما يسع الناس جهلُه، أو مما يطاله الظنُّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

العمل الصالح دليل على الإيمان الحقِّ:

الإيمانُ الحقُّ يورِّث العمل الصالح بالضرورة، والعمل الصالح ثمرة للإيمان الحقِّ بالضرورة؛ ومن ثمَّ فإننا، حتى ولو لم نهتدِ إلى معيار للتمييز بين فكرة وفكرة، وبين رأي ورأي، وبين معتقد وآخر؛ فإنَّ ثمرة هذه الفكرة والرأي والمعتقَد هي التي تدلُّ عليه، وتفضحه، وتكشف عن معدنه ومحتده، إمَّا ذهباً إبريزاً، وإمَّا غثاء ذاهباً.

هذا إذا صدق على الأفكار فهو من باب أولى يصدق على الإيمان والتوحيد؛ ذلك أنَّ الإيمان الصحيح خيرٌ محض، وحقٌّ خالص، وصواب صافٍ؛ فهو بالتالي يولِّد ثمرات طيبة، ونتائج مباركة، وآثاراً محمودة.

ولو نظرنا إلى الجدل الكلاميِّ، وتساءلنا:

ماذا ورَّث من عمل صالح؟

وفيمَ أفاد المسلمَ وهو يخوض معامع الحياة الصاخبة؟

وهل نفع الأمَّة في حربها الضروس على الاستعمار، وعلى الجهل، والضلال، والتبعية...؟

لا نستعجل الجواب، ولكنَّ الواقع واضح بيِّن؛ وحاشا أن نتهم ذات

العقيدة، أو الإيمان أو التوحيد؛ لكننا نشير بالإصبع إلى "منهج العرض"، وإلى "انحراف الدعوة عن مقاصدها"، وإلى "روح الشقاق بين المسلمين"؛ فهي التي ذهبت بريحهم، وجعلتهم فتنة للذين كفروا[١]، بل وفتنة للذين آمنوا كذلك.

بهذا المنهج الراشد، نعرض قواعد كلية، وأحكاماً توحيدية، مما هو متَّفق بين المسلمين، ومما لا يسع المسلمَ جهله طرفة عين، ونعاين أثر ذلك على واقع المسلمين، وبخاصَّة على الوحدة المنشودة بين أهل الدين، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥٢].

وحدةٌ مشروطة بالتوحيد، وتوحيد موصولٌ بالعبادة والتقوى.

---

(١) يعلّمنا القرآن الكريم أن نكثر من الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٦٠/٥].

توحيد الأصول العقدية
ودوره في تحقيق وحدة الأمة

لقد اشتغل الفكر الإسلاميُّ - والمعاصر منه بخاصَّة - بقضية وَحدة الأمَّة، وبحثَ مليّاً في شروط تحقيقها، وإمكانيات ذلك، ثم بقيت الوحدة أملاً يراود المصلحين والعلماء، بحثاً عن طريق ييسِّر الوصول إلى الوضع الذي كان عليه المجتمع المسلم في العهد النبوي؛ لكنَّ تفرقَ المسلمين، واتخاذَهم مدارس، وانتماءهم إلى مذاهب، بات يحول بين الأمة وبين تحقيق هذا الأمل المنشود.

وظلَّ السبب المؤرق في الموضوع محاولة الوصول إلى حلٍّ في ظل مفارقة مفادها: أنَّ المسلمين يجمعهم قرآنٌ واحد، وسنَّة واحدة؛ لكن مع تعدُّد التفسيرات ومناهج التعامل مع الوحي نتجت رؤى وآراء، واتُّخذت مبادئ مذهبية سميت «أصول الدين»، كانت سبباً في تمييز مذهب عن آخر، وبالتالي ابتعاد رأي عن آخر.

وهذا ما يفرض التساؤل من جديد:

إذا كان المصدر واحداً، فكيف يمكن أن يتوحَّد المسلمون من غير أن يلغي طرفٌ الطرفَ الآخر؟ ومن غير أن يدعي طرفٌ امتلاك الحقيقة المطلقة والوحيدة في فهم النص الموحى به بمظهريه: النص القرآني، أو الحديث النبوي؟

وهل يمكن أن يتَّحد المسلمون دون إقصاء، ودون أن يبتعدوا عن المصدر أو يتجاوزوه؟

فوَحدة المسلمين تبدو أحياناً قريبةً لا يحول بينها وبين الوصول إليها إلا اعتبارات يمكن أن تُبحث وتتدارس، ويمكن أن يتقلص جانب كبير من الشُّقة؛ وتبدو أحياناً أخرى كأنها مستحيلة، لِما صنع البعض لأنفسهم من حواجز مفاهيمية، ومن أحكام قاسية تُبعِد ولا تُقرِّب، تنفِّر ولا تؤلِّف، وهي كلُّها تحيل الموضوع معقَّداً، خلاف المتوقَّع.

ونحاول مقاربة الموضوع من خلال النظر ودراسة "الأصول العقدية" التي نزل بها النص، والأصول التي نسبت إلى المذاهب أو اتخذتها كذلك، ومن خلال المقارنة بين النوعين، وتحليل التعامل مع النوع الأوَّل بخاصَّة؛ والنظرُ بين ما نزل به الوحي صريحاً، وبين ما فسَّر به العلماء النص؛ ونسبةُ التفسير إلى المفسِّر من حيث إلزامية التفسير، ومكانته في الاعتبار الشرعي.

فإنَّ القضايا التي دار حولها الخلاف تبدو غير كافية لتبرير كلِّ ما وقع بين المسلمين، وإنَّ الخلاف العقديَّ في كثير من جوانبه كان في تدخُّل الإنسان وفكره في مجال الغيب، يقول عبد المجيد النجار في هذا وهو يدرس قضية حرية الرأي: «ولك أن تتبين ذلك في الفُرقة المذهبية بين سنة وشيعة، وبين سنة وإباضية، وبين سلفية وأشعرية، وهي فُرقة تدور في الغالب على قضايا غيبية مثل رؤية الله تعالى، وحقيقة صفاته الخبرية، وما شابهها»[1]. وهذا من شأنه أن يدعو إلى بحث كيفية الرجوع إلى هذه القضايا بما يحقِّق الوحدة.

وسنحاول أن نحدِّد الموضوع في التساؤل الأساس الآتي:

---

(١) النجار عبد المجيد، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، سلسلة أبحاث علمية، قضايا الفكر الإسلامي، رقم ٠٦، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا - أمريكا، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٦٨-٦٩.

هل يمكن أن توحَّد أصول الدين بين المسلمين بشكل يغني عن الفرقة؟

وهل يمكن معه أن يرقى المسلمون على اختلاف مذاهبهم إلى الحال التي أمروا أن يكونوا عليها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٢]؟

ونفترض أنَّه: بالإمكان الوصول إلى منطقة الوسَط، وتحقيق القول الجامع بين الأصول المذهبية، مِن أجل تحقيق تصوُّر وحدةٍ على مستوى الأصول العقدية، تسهم في تطوير واقع الأمَّة، وخدمة البشرية بالإسلام، الذي يجمع الجهود، وينير السبل أمام البشرية؛ لنيل السعادتين.

كما نفترض جدلاً أنَّ الأصول التي نزلت بالوحي كفيلةٌ وحدها، من دون النظر إلى الاختلاف في تفسيرها، أنْ تحقِّق هذه الوحدة المنشودة، من خلال الالتزام بالفصل بين الأصل وبين تفسيره.

تحديد الأصول العقدية:

تداول العلماء كثيراً مصطلح "أصول الدين" بمعانٍ متعددة، وكان من أسماء علم الكلام، وعنواناً أو ضمن عناوين كتبٍ في هذا العلم[(١)]. وهو مصطلح يحتاج إلى ضبط وتعريف، وتحديدِ ما يصدق عليه؛ فهل يمكن الوقوف على تعريف ضابط واضح له؟

---

(١) ينظر مثلاً: الرازي فخر الدين محَمَّد بن عمر، معالم أصول الدين، مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة د.ت؛ أصول الدين، لعبد القادر البغدادي، طبعة دار الكتاب العلمية الثانية، ١٤٠٠هـ؛ أصول الدين، للقاضي أبو اليسر البزدوي، حققه وقدم له، د. هانز بترلانس، طبعة دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاه، القاهرة ١٣٨٨هـ؛ محَمَّد علي ناصر، أصول الدين الإسلامي عرض وتحليل وتحقيق: المكتبة العصرية صيدا بيروت، د. ت؛ تبغورين بن عيسى، أصول الدين، أو الأصول العشرة عند الإباضية، دراسة وتحقيق د. ونيس الطاهر عامر، مكتبة الجيل الواعد، نزوى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م وغيرها.

ولقد استُعمل مصطلح "أصول الدين" استعمالات متعدِّدة؛ منها ما اعتبر فيه مجرَّد المعنى اللغوي، ومنها ما اعتبر أنه يجمع كلَّ مهمٍّ في الدين؛ ومنها ما اعتبر فيه جملة مبادئ وآراء عقدية تميز فرقة ومذهباً عن غيره.

"الأصول" جمع "أصل"، وقد عرَّفه البعض استناداً إلى كتاب "التعريفات" للجرجاني وقال: «الأصل ما يبنى عليه غيره، وفروع الشرع مبنيَّة على أصوله، فما يجوز فيه الخلاف مبنيٌّ على ما لا يجوز فيه»[1]، فـ"الأصول" بهذا التعريف هي: المسائل العقدية التي لا يجوز فيها الخلاف، بمعنى أنَّ المعنى فيها والمقصود واحد لا يتعدَّد.

أي مِن شأن الأصل أن يكون متفَقاً عليه، بينما الفرع يمكن أن يُختلف فيه، وواضح أنَّ هذا الحكم صادق في دائرة الشرع، وإذا سايرنا هذا التعريف فإنه يبدو جامعاً لمعاني الأصول الشرعية، ويدلُّ على اتفاق الأمة على كلمة واحدة، فـ"ما اتَّفقت عليه هو الأصل، وما اختلفت فيه هو الفرع".

ويهمُّنا هذا الضبط بأنَّ "الأصل ما بني عليه غيره، وما بني على غيره اعتُبر فرعاً"؛ ليكون حدّاً فاصلاً في الموضوع، ومعياراً منهجيّاً قويّاً في طريق تحديد "الأصول العقدية".

وتظهر قوة هذا المعيار من حيث إنه يُغني عن كل تقييد آخر، إضافة إلى ما يحمله من وضوح يمكِّن من تمييز كلِّ مادة عقدية عن أخرى مما لا يعتبر أصلاً، ومما ينزَّل منزلة الفروع لمجرد إثبات استناده إلى غيره.

وإن كان هذا المعيار يبدو أحياناً غير كافٍ في تجريده اللغوي، أمَّا في

---

(١) امحمد بن يوسف، شرح أصول الدين، تحقيق مصطفى وينتن، ضمن متطلبات أطروحة الدكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر، سنة ٢٠٠٧؛ ص ٢٦٨؛ وينظر: الجرجاني علي بن محمد، كتاب التعريفات، تحقيق وتقديم إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢، ص٣٠.

التطبيق العملي على واقع المفاهيم، فإنه يصعب تحديد اعتبار أصول متعددة إذا نظرنا إلى العقيدة على أنها ترجع في نهاية المطاف إلى شيء واحد، وهو توحيد الله تعالى والإيمان به؛ فكلُّ معنى وكلُّ قضية مطلوب الإيمانُ بها عقديّاً إنما هي فرع من التوحيد؛ وهذا يدلُّ على قوَّة عقيدة التوحيد من جهة، في أنها لا تقبل أيَّ ثنائية أو تعدد، ومن جهة أخرى يدل على ترابط أجزاء العقيدة.

فنحتاج إلى ضابط آخر يكتسب تأصيلاً، ويبين خصوصية الأصول العقدية؛ ويمكن أن ننظر إلى معيارين:

أحدهما «التأصيل»، بالورود في النص القرآني والسنة الصحيحة.

وثانيهما معيار «عدم الاختلاف» على الأصل، والإجماعُ عليه.

فالمعيار الأوَّل، يُنتج لنا جملة من القضايا العقدية؛ لكن يمكن أن يكون مختلَفاً في تفسيرها مع أنها واردة بنصٍّ؛ ثم نأخذ بالمعيار الثاني من خلال كونه متَّفقاً عليه، فلا يسمَّى أصلاً عقديّاً إلَّا ما كان موحىً به، وغير مختلف على فهمه وتفسيره.

وبهذا المعيار، أي معيار «التأصيل»، تكون الأصول العقدية هي الأصول الستَّة، كما ذكرها الله تعالى، وجعلها من البرِّ؛ وأخبر الله تعالى بأنَّ الرسل - عليهم السلام - والمؤمنون آمنوا بها؛ وأجاب بها الرسولُ ﷺ في حديث جبريل عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/١٧٧].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

وقد بيَّن الرسول ﷺ، هذه الأصول، في حديث جبريل عليه السلام المشهور، كما رواه الإمام مسلم، وفيه: «**قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه، قال: صدقتَ**»[1].

وسميت هذه الأصول بالأصول الستة، وهي:

- الإيمان بالله سبحانه.
- والإيمان بالملائكة.
- والإيمان بالرسل.
- والإيمان بالكتب.
- والإيمان باليوم الآخر.
- والإيمان بالقدر.

نلحظ أنَّ هذه الأصول تتوفَّر على كلِّ المعايير التي بها تتجسد "أصول الإيمان" والاعتقاد: إذ لم يقع عليها خلاف ولا جدل، في أصلها ولا في تقريرها، وإنما وقع الجدل والخلاف في تفسيرها، وما نتج عنه.

كما نلحظ أنها فعلاً هي التي يبنى عليها غيرُها، فكلُّ المسائل العقدية والكلامية لا تنفكُّ ناشئة عن أحد هذه الأصول، أو ترجع إلى واحد منها.

---

(١) مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ د. ت، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والحسان، حديث رقم ٠٨.

فقضية الفعل الإنساني بين "حرية الاختيار والجبر" ترجع إلى "الإيمان بالقدر"؛ وقضية "مصير صاحب الكبيرة" ترجع إلى "الإيمان باليوم الآخر"، وقضية "الرؤية" إثباتاً أو نفياً ترجع إلى "الإيمان بالله تعالى"، ومثلها قضية "الصفات وعلاقتها بذات الله سبحانه وتعالى".

هي قضايا عقدية أساسية نسمِّيها أصولاً، وأخرى أرجعناها إلى هذه الأصول، فتعتبَر فروعاً عنها، محقِّقة أهم مفهوم للأصل وحدَه، وهو كون الأصل يبنى عليه غيره.

كما أن هذه الأصول المذكورة بين النصِّ القرآنيِّ والحديث النبويِّ تكتسب معيارية "التأصيل والوضوح والإجماع" على إقرارها بين المسلمين، فغير ممكن أن نجد مَن يختلف حولها إنكاراً ورفضاً، أو حتى تقييداً أو تعديلاً.

فإذا اتخذنا المعيار لأصول العقيدة ورودَها بنصٍّ صريح، وأنها ما لم يقع عليه الخلاف، ننتهي إلى أنه لا تكون من أصول العقيدة بالمعنى الدقيق إلا أصول الإيمان الستة، ونكتفي بها عن أي معنى يُستنتج عنها، ونعتبره من الفروع العقدية، فيصبح للعقيدة أصول وفروع.

ونعتقد أنَّ ضابطي عدم الاختلاف، ومصدريةَ الأصل مصدريةً ترجع إلى الوحي، هما أقوى الضوابط، وهو أمر منطقي ومعقول[1].

لكن، إلى جانب هذا نجد أنَّه أضيف إلى متون العقيدة ومنظوماتها الأصولُ المذهبيةُ، التي ينبغي بحث صلتها بهذه الأصول العامَّة.

الفرق بين الأصول العقدية العامة والأصول المذهبية

قبل مناقشة الفرق بين الأصول العقديَّة العامَّة التي أشرنا إليها مستقاة من القرآن الكريم ومن السنة الشريفة، وبين الأصول المذهبية، نشير إلى أهمِّ هذه

(١) ينظر: محمد نعيم محمد ساعي، القانون في عقائد الفرق والمذاهب الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٣٠٠-٣٠١.

"الأصول المذهبية" التي سميت عند أصحابها بـ"أصول الدين" كذلك.

١- الأصول المذهبية:

تتميز الفِرق الإسلامية أساساً بأصول خاصّة بها، فلا ينتسب إلى أي مذهب إلّا من تمثل أصولَه واعتقدها، وقال بها مع أهل ذلك المذهب، وإذا تركها أو خالفها سرعان ما يصدر الحكم عليه بمخالفة المذهب، وربما تُبُرِّئ منه.

ونقصد بالأصول المذهبية العقديّة تلك المبادئ التي تواضَع عليها أهل كلِّ مذهب، وطالبوا باتّباعها واعتقادها والعمل بمقتضاها، وهو طلب متوجِّه إلى كلِّ مكلَّف، كما يتوجَّه إليه الطلب بسائر خصال الإيمان.

وهذه الأصول المذهبية تنشأ عن منهج التعامل مع النصِّ المصدري من كتابٍ أو سنةٍ، وتنبئ عن رؤية صاحب المذهب أو أصحابه إلى طريقة التفسير، وإلى رؤيتهم للوجود، من خلال المنطلقات المنهجية لهذا المذهب.

وسِمتها الأولى ودورها الأساس هو إظهار تميُّز التفكير المذهبي تميُّزاً كاملاً عن غيره من المذاهب، أو تميزاً جزئيّاً، بحيث يلتقي في بعض أصوله مع غيره، ويختلف في أخرى، ومن أهم سماتها أيضاً أنها تنشأ في كثير من الأحيان ردَّ فعل، وجواباً، وموقفاً من آراء الآخرين المخالفين للمذهب.

وتبعاً لهذا الاعتبار ظهرت أغلبُ المذاهب العقدية الإسلامية، منها: المعتزلة، والإباضية، والأشاعرة، والشيعة...

فلكلِّ مذهب أصولُه التي توارثها أهله، وتناقلوها عبر التاريخ، وقدَّموا فيها أعمالاً توضيحيَّة وتفسيريَّة، ومِن ذلك على سبيل المثال لا الحصر نذكر نموذجاً للأصول عند المعتزلة، ونموذجاً للأصول عند الإباضية؛ ونختار هذين المذهبين للتمثيل، بغرض حصر الموضوع؛ ولأنَّ لهما أصولاً مصرَّحاً بها، ومضبوطةً، واشتهر بها أهل المذهبين.

٢- أصول المعتزلة:

ذكرها وشرحها القاضي عبد الجبار في كتابه: (شرح الأصول الخمسة)، وهي:

التوحيد، والعدل، والقدر، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[١].

وهي كما نراها في التحليل لا تنفكُّ عن أمرين:

الأمر الأول: أنها لا تستوعب كلَّ الجوانب الإيمانية، التي أمر الله تعالى بها في القرآن الكريم، وأمر بها رسول الله ﷺ في السنَّة المطهرة؛ حيث نجدها لا تنصُّ على الإيمان باليوم الآخر، ولكن تركِّز على طرفٍ منه وهو مصير صاحب الكبيرة، وتغفل عن كل قضايا اليوم الآخر، رغم كونها أصلاً قرآنياً؛ وتغفل الإيمان بالنبوة والرسل، وبالكتب ولا تنص على ذلك.

الأمر الثاني: أنها تتداخل فيما بينها أيضاً، إذ يُعتبر العدل من التوحيد، والقدر أيضاً منه.

إضافة إلى أنها اشتملت على أصلٍ عمليٍّ تم إدراجه ضمن العقيدة، وهو الأمر والنهي، وقد تم ذلك أثراً من البناء التراكمي للأصول العقدية في المتون، فكلَّما ضخِّمت قضيةٌ وتم التركيز عليها والاهتمام بها، رُفعت إلى مستوى العقيدة وأصبحت مما يطلب الإيمان به[٢].

فهي أصولٌ لكنَّها لا تخصُّ إلَّا المعتزلة، في ضرورة التركيز عليها، ومن

---

(١) ينظر: عبد الجبار القاضي أبو الحسن، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، نشر مكتبة وهبة مصر، ط٣، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) وانظر: عبد المجيد النجار، إحياء الفكر العقدي في مواجهة التحديات، أو تجديد الفكر العقدي، مجلة مخبر البحث في الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، عدد ٢، سنة ٢٠٠٥م، ص ٥٥-٥٩.

جانب آخر، إذا نظرنا فيها نجدها لا تكون حكراً عليهم إلّا بمجموعها، وبالمفهوم الذي أراده المعتزلة أن يكون لها، فهي بهذا تفسيرٌ خاصٌ بالفكر الاعتزالي لقِسم من الدين عامَّة؛ فالتوحيد لا يكون خاصاً بالاعتزال إلّا في توجيه معناه، والحديث ضمنه عن الله تعالى وصفاته بما هو من نتائج منهج المعتزلة في التعامل مع النص. بينما نجد جمهور المسلمين يشتركون مع المعتزلة في هذه الأصول ويختلفون معهم في تفسيرها، مثل قضية العدل الإلهي، والقدر، والأمر والنهي.

يمكن القول إنَّ هذه الأصول الاعتزالية هي في الأصل لم تخرج عن العقيدة عموماً، ولا يتفرَّد بها المعتزلة إلّا باعتبار عامل منهج التفسير، ونتيجة هذا التفسير أظهرت تميُّز هذا المذهب عن غيره.

٣- أصول الإباضية:

أورد تبغورين بن عيسى الملشوطي، من علماء الإباضية في القرن الخامس الهجري[١] مجموعة الأصول عند الإباضية، وحددها في عشرة، وتبعه على ذلك غيره؛ إلا أنَّ عالماً آخر في القرن العاشر هو الشيخ أبو ساكن عامر بن علي الشماخي[٢] اختصرها إلى تسعة، وإن كان في الأمر اختلاف

(١) تبغورين بن عيسى أحد علماء الإباضية نشأ في مدينة آجلو جنوب الجزائر، عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، له من المؤلفات: (الأدلَّة والبيان): في أصول الفقه، و(كتاب الجهالات)، و(المعلقات في أخبار أهل الدعوة)، وكتاب (أصول الدين)؛ لجنة البحث العلمي: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ترجمة رقم٢٢١؛ ينظر: امحمد بن يوسف اطفيش، شرح كتاب أصول الدين، ص ٣٣-٣٨.

(٢) عامر بن علي بن عامر ابن يَسِّفاوْ الشمَّاخي أبو ساكن، ت: ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م، من أعلام الإباضية بجبل نفوسة في ليبيا، تخرج عليه علماء، ومن مؤلفاته المرجعية في الفقه كتابه: (الإيضاح)، وكتاب (متن الديانات). ينظر معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم ٥٢٩.

تصنيف واعتبار، إذ جعل أصل "الأسماء والصفات" جزءاً من أصل "التوحيد"[١].

هذه الأصول العشرة هي:

- "التوحيد".
- "العدل".
- "الأسماء والصفات".
- "القضاء والقدر".
- "الأسماء والأحكام".
- "المنزلة بين المنزلتين"؛ ويراد به إقرار وجود منزلة النفاق بين منزلتي الإيمان والكفر، وما تبع ذلك من وجود الأسماء الثلاثة: المؤمن، والكافر، والمنافق.
- "لا منزلة بين المنزلتين"؛ ويقصد به نفي منزلة بين السعادة والشقاء الأخرويين، فالعباد بين مصيرين: إما في الجنة، وإما في النار.
- "الوعد والوعيد".
- "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".
- "الولاية والبراءة".

ونسجل على هذه الأصول العشرة من الملاحظات ما سبق أن سجلناه عن الأصول الخمسة عند المعتزلة؛ إذ إنها كذلك لا تستغرق الأصول العقدية الإيمانية الواردة في القرآن الكريم، ومن أهمِّها النبوة، واليوم الآخر، والكتب السماوية المنزلة، والملائكة؛ وإن كان بعضها يتفرع عن هذه

(١) الشماخي عامر بن علي، متن الديانات، ضمن مجموع كتب مختارة مصور عن طبعة الفجالة الجديدة القاهرة، د.ت؛ ص ٤٧.

الأصول مثل أصل "المنزلة بين المنزلتين"، و"لا منزلة بين المنزلتين"، و"الوعد والوعيد"، التي تتعلق بجزء من الإيمان باليوم الآخر وهو مصير الإنسان.

فهذه الأصول تأتي بعد الأصول القرآنية، وكذلك تتداخل فيما بينها، ويأتي بعضُها مكمِّلاً للآخر، ما دامت ترجع إلى أصل قرآنيٍّ واحد، ومن ذلك مثلاً دخول أصول "لا منزلة بين المنزلتين"، و"الوعد والوعيد"، المذكورة سابقاً تحت مسمى أصل "الإيمان باليوم الآخر".

واشتملت هذه الأصول العشرة كذلك على أصل فرعيٍّ عمليٍّ، وهو "الأمرُ والنهي" و"الولاية والبراءة"، وأدرجت ضمنه "الإمامة"؛ وهي عند الإباضية فرع عمليٌّ وليس أصلاً عقديّاً، لكن وقع عليها التركيز والاهتمام حتى أدرجت ضمن المتنِ العقديِّ، واعتبرت من الأصول[1].

٤- أصول باقي المذاهب:

وأمَّا باقي المذاهب فإنَّ لها أصولاً تقرُب من عموميات أصول الإيمان، بخاصَّة: المدرسة الأشعرية، والماتريدية، ومذهب أهل الحديث من الحنابلة، وفي الغالب عُرف عن هؤلاء آراء حول أصول الإيمان وتفسيراتهم لها، مما شكَّل مسائل خاصَّة بهم أو ردُّوا بها وجهة نظر غيرهم ممن خالفهم الرأي والمواقف. ولم تتشكل في منظومتهم أصولٌ خاصة مثل سابقيهم، مما دعا الدكتور محمود صبحي إلى أن يقول عن أحد المذاهب: إنهم لم يفرِّقوا «بين جليل الكلام ودقيقه، ولا بين ما هو من الأصول وما هو من الفروع، التي يجوز أن يختلف فيها المسلمون»[2].

---

(١) امحمد بن يوسف اطفيش، شرح كتاب أصول الدين، ص٢٠١-٢١٣.

(٢) محمود صبحي، في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، رقم ٠٢، الأشاعرة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٥، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦.

ويتكرَّر الوضع نفسه عند الشيعة، على تعدُّد فرقهم، فهم أحياناً إلى المعتزلة أميل، وببعض المبادئ العقدية أكثر تأكيداً، ومنها بخاصة ما تعلق بالاعتقاد في آل البيت، مما يتصل بقضية الأحقية بالإمامة، وعصمة الإمام....

والذي يرتبط بموضوعنا فيما يخصُّ هذا النوع من المذاهب هو تفسير الأصول الإيمانية، والموقف من الرأي الآخر فيها، كما سيأتي.

العلاقة بين أصول الدين العامة وبين الأصول المذهبية:

من البدهي أن تُبحث العلاقة بين الأصول التي ارتضتها المذاهب لنفسها وبين الأصول الإيمانية الواردة في القرآن الكريم والسنَّة المطهرة؛ لأن هذا هو المجال الدقيق والمفصليُّ في الموضوع؛ إذ كيف يتَّخذ مذهبٌ معيَّن أصولاً، وهو يستقي من القرآن الكريم؟ وما شأن هذه الأصول المتخَذة في مقابل ما ورد بالنص؟

من شأن الجواب عن هذا السؤال أن يحلَّ جزءاً من الإشكالِ الأساسيِّ في الموضوع، ويبقى الجزء الثاني المتعلِّق بالتفسير.

إذا نظرنا في هذه الأصول المذهبية فإننا ننتهي إلى جملة من الملاحظات عند مقارنتها مع الأصول العقدية العامَّة؛ وهذا باعتبار أننا نقصد بالأصول العقدية العامَّة الأصولَ الستَّة الإيمانية - التي سبق الإشارة إليها، ومستندها القرآن الكريم، وحديث الرسول ﷺ - فنجد من نتائج المقارنة أنَّ هذه الأصول المذهبية تختلف عن الأصول العامة في الآتي:

١ - أنها من اختيارات أصحاب الفرق، ولو أنَّ لها سنداً في النصوص، لكنَّ استنادها استنباطي، وتبعي بالنسبة إلى الأصول العقدية العامَّة؛ ومن هنا فهي لا تكتسب صبغة الإلزام ضرورة، إلَّا بعد الاستدلال عليها؛ وحتى في حال إلزاميتها فإنها لا يمكن أن تضاهي الأصول العقدية العامَّة نظراً لتباين

جهة الأمر ومصدر التأصيل، وكذا بالنظر إلى جهة الاختيار؛ فلا يمكن أن يساوى بين الأمر الإلهي، وبين الاختيار البشري.

٢ - تعتبر الأصول المذهبية أثراً وجزءاً من كلٌ الأصول العامَّة، وهذا يسلم إلى نتيجة أن لها سنداً ولم يختلقها أصحابها عن هوىً؛ ولكن أيضاً تتيح الاستنتاج أنه يمكن أن يُستغنى عنها، ما دامت متضمنة في الأصول العامَّة، أو على الأقل لا تكتسب قوة الأصول العامة، ولا تحل محلَّها.

٣ - الأصول المذهبية تبقى في نطاق ضيِّق من اختصاص النظرة المذهبية، قد تجتمع مع بعضها، ويتفق مذهبان أو أكثر على أصل من هذه الأصول، ولكن اجتماعها في كل مذهب يُنتج خصوصية مذهبية.

٤ - الأصول المذهبية تتقاطع فيما بينها؛ حيث لا نجد مذهباً يختص بكلٌ أصوله وينفرد بها، بل إن الجمع بين هذه المذاهب ممكن من جهة أنَّ في كل مذهب جزءاً أو بعضاً من أصول مذهب آخر، مثل الذي بين المعتزلة والإباضية، أو بين المعتزلة والأشاعرة، وهكذا....

٥ - إنَّ منطقة الاختصاص توحي بأنَّ هذه الأصول لم تكن أصولَ اتفاق، وربما لم يُرَد لها هذا الوصف ولا هذه الخاصيَّة؛ بل أُريدَ التفرد أو التميز من حيث ذكر ما اختَلف فيه مذهبٌ عن غيره، وهذا يستدعي البحث عن "أصول الاتفاق" عوض البحث في "أصول الاختلاف".

وبأصول الاختلاف يتميز كلٌّ مذهب بما يحقق له تفرداً عن غيره؛ ولذا يبدو أنَّ الصواب أن تسمى "أصول الاختلاف"، أو "أصول المذهب"، لا "أصول الدين" على الإطلاق؛ لأنَّ "أصول الدين" من المفروض ألَّا تكون موضع خلاف بين المسلمين، فلا يفرق بين المسلم وغيره إلَّا اختلافه مع الملل الأخرى، في أصول إيمانه وأحكام الشريعة التي يلتزم بها.

ومما يدلُّ على أنَّ المراد بهذه الأصول المذهبية معناها الضيِّق، والمقتصر على مميزات المذهب؛ ما نقرأه - مثلاً - عند العالم الإباضي

تبغورين بن عيسى؛ الذي قال في مقدّمة حديثه عن أصول مذهبه: «أصول الدين التي اختلفت فيها الأمّة حتى صاروا طرائق قِدَداً، وأفراقاً مختلفة»[1]؛ وكان هذا الوصف دقيقاً وصادقاً؛ لأنَّ هذه المذاهب لم تتخذ أصولاً تقصِد بها ما اجتمع عليه المسلمون، بقدر ما قصدت ما اختلفت فيه مع غيرها.

كما يمكن الانتهاء إلى نتيجة مفادها: إنَّ الأصول المذهبية لن تكون من وجهة نظر منفردة عن كلِّ المسلمين، فلا نكاد نجد مذهباً يحقِّق هذا بالمعنى الدقيق، إلَّا على الغالب، فيذكر له بعض المواقف التي اشتهر بتغليبها على غيرها، وإلَّا فلا يمكن أن ينفرد مذهب - مثلاً - بأصل يسميه "أصل التوحيد" دون غيره، ولا "أصل العدل" مثلاً، ولكن لكل مذهب نظر في جزء من هذه الأصول، وهذا يثبت أنَّ هذا المصطلح وقع فيه التوسُّع كثيراً مما أنتج عدم انضباطه؛ إذ أريد به التفرد، بينما الحقيقة غير ذلك، ولا يكون لمذهب تفرُّدٌ إلَّا في التفسير وتحديد ما يصدق عليه الأصل.

فهل يمكن أن نعتبر الأصول المذهبية إذن تفسيرات للأصول العامَّة؟

وما مدى أهمية التفسيرات المذهبية للأصول العقدية؟

هذا ما نحاول الإجابة عنه، في المبحث الموالي.

الفرق بين الأصل العقدي وتفسيره:

لقد نتج من تعامل الفكر الإسلامي عبر الزمن مع النصِّ المصدري المتمثِّل في الكتاب والسنَّة؛ أن ظهرت مواقف متباينة بين المسلمين في فهم النص؛ بين من وقف على ظاهر النص ومنعَ التأويل، واعتبره محذوراً

---

(١) تبغورين بن عيسى، أصول الدين، أو الأصول العشرة عند الإباضية، دراسة وتحقيق د. ونيس الطاهر عامر، مكتبة الجيل الواعد، نزوى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٧٤، وينظر: الشماخي، متن الديانات، ص ٤٧.

ومحظوراً[١]؛ وبين من اتخذ منهج التأويل[٢]، على اختلاف بين المؤوِّلين في مدى اعتماد التأويل، والاحتكام إلى نتيجة النظر العقلي في التعامل مع النص.

وفي كلِّ الأحوال ومع مختلف وجهات النظر، وتعدد المناهج، أسفرت جهود التفسير ومحاولاته، ومنهج التحليل، عن ظهور جملة من المواقف، وتردَّدت عدد من الآراء بمصطلحاتها أضيفت إلى المتون العقدية، وإلى ما حدَّده كلُّ مذهب في الإيمان بالله تعالى وما ارتبط بالعقيدة.

فكانت هذه المواقف والآراء تبعاً للنصِّ، وإن لم تكن بالضرورة متطابقة معه؛ لأنَّ الحكم بالتطابق أصلاً لا يمكن أن يتحمَّله إلَّا صاحب التفسير.

فعند النظر إلى الآراء المذهبية نجدها في كثير من الأحيان تعبر عن الأصول الإيمانية، لكن بغير مصطلحاتها على المستوى اللفظيِّ، وبغير المحتوى كذلك على مستوى المضامين، وفي الغالب هي إضافات تفسيرية على النصوص.

فبالإمكان إرجاع كل الأصول المذهبية إلى الأصول الستَّة، مثلما هو الحال في الحرية والاختيار والجبر، الذي هو أثر من أصل الإيمان بالقدر.

ويقال مثل هذا في الحديث عن الصفات، وكلُّ ما يتعلَّق بالإيمان بالله تعالى من رؤيته إمكاناً وعدماً، وصفاته وعلاقتها بالذات، والقول في القرآن الكريم، وأنواع التوحيد، بل حتى مصطلح التوحيد مطلَقاً أو مقيداً بالربوبية أو الألوهية، كلها من متعلقات الأصل الإيماني الأول وهو الإيمان بالله تعالى.

---

(١) ينقل عن بعضهم قوله: "ونحن نعتقد أنَّ كثيراً من المؤوِّلة ليسوا زنادقة، لكن في الحقيقة إنهم يقولون قولة الزنادقة". وقوله: "التأويل هو عين التعطيل".

(٢) عنون الزمخشري تفسيره المشهور بـ: (الكشَّاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوب التأويل)، وفي بعض الطبعات (وجوه التأويل) عوض (وجوب التأويل).

وكذا ما تعلَّق بأفعال الإنسان ومصيره وتسمياته، واعتقاد كونه سعيداً أو شقياً، وشروط ذلك، والمنازل بين الإيمان والكفر إثباتاً ونفياً؛ كلُّها يمكن اعتبارها من مشتملات أصل الإيمان بالغيب واليوم الآخر بخاصَّة.

وهكذا، نجد الجهد البشريَّ حاضراً وبوضوح في مضمون العقيدة الإسلامية، فلم يقتصر المسلمون على ما جاء في الكتاب والسنَّة ملتزمين بهما ألفاظاً ومعاني، بل أتاحوا لأنفسهم استحداث منظومة من المفاهيم العقدية، بناء على ما تلقَّوه من الوحي، وهي وإن لم تخرج عن نطاق الوحي، إلَّا أنه أعطي لبعض المستحدَثات الإنسانية قوةَ النص الموحى به، وسلطتَه، ودرجتَه من الاعتبار؛ وربما كان السبب الرئيس للفُرقة هذا الملحظُ، وهذا السلوك تجاه النص، في موضوع أساسي تأسيسي في الدين والتشريع.

فهذه العلاقة بين الأصول الستة، وبين ما نتج عنها من التفسيراتُ تدلُّ على أنَّ الجهد البشريَّ ظهر واضحاً في عملية التفسير، وفي تحليل هذه الأصول، فبهذا تكون المواقف المذهبية وأصولها تفسيراً لأصول الإيمان في أحسن الأحوال.

لذا نعتبر أنَّ الأصلَ العقديَّ الإيمانيَّ بات واضحاً محدَّداً مقصوراً على ما نزل به النص، لفظاً ومعنى أولاً، متمثلاً في الأصول الستة؛ وهي أصول الإيمان وأساسياته التي لا يتم إيمان المرء حتى يأتي بهن جميعاً إيماناً كاملاً؛ أي تصديقاً كاملاً غير منقوص، بلا شك فيها ولا ريب؛ دون الخوض في اعتبار تعريفات الإيمان تضييقاً وتوسيعاً بين التصديق والقول والعمل، مما ليس من مهمَّة هذه الدراسة.

ثم نعتبر أنَّ كلَّ ما استحدثه الفهم البشريُّ مِن مصطلحات، ومن مفاهيم، وما يصدق عليها، وما ينجرُّ عنها من سلوك أيضاً، فروعاً عقدية، بناء على معايير اعتبار الأصول والفروع، فما كان أثراً من غيره فهو

فرعٌ عنه؛ ولا يمكن أن يصبح هو هو، ولا مثله، ولا أعلى درجة من أصله الذي تفرَّع عنه.

وهنا يمكن إيراد بعض القضايا على سبيل المثال لا الحصر، وما ينتج عنها بناء على تحديد أصول الإيمان، حسب الآتي:

١- أنواع التوحيد: فتفريعه إلى توحيد ألوهية، وتوحيد ربوبية؛ وتوحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال؛ حسب مصطلحات المذاهب الإسلامية، كلُّ ذلك نتج عن أصل الإيمان بالله تعالى، كما أمر الله عزَّ وجلَّ، وأرشد إليه الرسول ﷺ من غير هذا التفصيل الذي اقتضته - ولا ريب - ظروف مرَّ بها البحث العقدي في مراحله التاريخية.

فعلى مستوى هذا الأصل نجد التفريع بداية من اختيار المسلمين لمصطلح "التوحيد"؛ الذي أصبح بدلاً من مصطلح "الإيمان"، ثم التقسيم الذي لم يرد عليه دليل، فيمكن أن نرجع إلى هدي الرسول ﷺ الذي كان يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى ولا يزيد، على الأقل في مستوى عامَّة الناس، فلا يُثقل عليهم بما يشوِّش إيمانهم، ويلهيهم عن العمل الصالح.

وكذا مسألة الرؤية التي كثُر حولها الجدل إثباتاً ونفياً، فهي أيضاً من تفريعات الإيمان بالله تعالى، فيمكن اعتبارها من مرتبة تفسير الأصل، بدليل أنها غير متَّفق عليها، ووقع فيها الاختلافُ، مما يجعل اعتبارها أصلاً مِن قبيل إدراج ما ليس من الأصول لأنَّه مختلف فيه، ضمن الأصول التي لا يختلف فيها؛ فممَّا يدلُّ على عدم رفعها إلى الأصولِ الاختلافُ في تحديد المراد منها، بين الاعتقاد الجازم بكونها رؤية غير مؤدية إلى التشبيه، واعتبارها خاصة بما يليق بذاته تعالى عند من يثبتها؛ وأنها لا تكون عند من ينفيها بناء على اعتبار الرؤية بالمعنى الحقيق المعهود؛ فنجد أن محلَّ الاختلاف غير متَّحد، مما يمنع من المقارنة أصلاً، ويمنع من استنتاج نتيجة في حق أحد الأطراف.

وهذا ما أمكن أن يوصِل الطرفين أحياناً إلى الاتفاق أو الاقتراب من بعضهما عند تحرير محلّ الجدل والخلاف، وهو ما جعل الغزالي - مثلاً - ينتهي إلى أنها لا تكون رؤية بصرية بقدر ما هي رؤية تعني: مزيد علم بالله تعالى، يصبح كأنه الرؤية البصرية في كونها مشاهدة وحسية؛ وهو ما اعتبره بعض من ينفيها قولاً مقبولاً[(١)]؛ وهذا يثبت كونها من تفسير أصل الإيمان بالله تعالى، ولا تكون هي كل الإيمان به عز وجلّ.

٢ - **القول في أفعال الإنسان**: وقد تعدَّدت فيها الأقوال والمواقف، مع أنَّ الرسول ﷺ لم يفصِّل في الأمر بالإيمان بالقدر خيره وشره؛ لكن توسَّعت المتون العقدية والدراسات قديماً فزادت مصطلح القضاء عمومية، وذهبت تبحث العلاقة بين المصطلحين، وأسبقية معنى أحدهما على الآخر بين الدنيا والآخرة، وكان بحثاً يغني عنه الالتزام بما جاء به النص.

كما أنَّ الجهود الموغِلة في بحث العلاقة بين فعل الإنسان وإرادة الله تعالى، ومسؤولية الإنسان على فعله، لم تُفضِ إلى جواب مقنع ومطمئِن، مع

---

(١) ينظر في هذا: الغزالي أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٤٤ - ٤٥. الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق، المطبعة البارونية، مصر، ١٣٠٦هـ، ١/ ٦٤؛ السالمي عبد الله بن حميد، مشارق أنوار العقول، تحقيق د عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ١/ ٣٦٣؛ اطفيش امحمد بن يوسف، حاشية القناطر: مخطوط في مكتبة القطب، رقم ١. و: ٥، ج٢، ورقة: ١٥؛ هميان الزاد إلى دار الميعاد، ط١، المطبعة السلطانية، زنجبار، ١٣٠٥هـ، ١٤/ ٤٩٠؛ الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: طبع قديم دم ١٣٢٦ هـ، ص١٣٢؛ عبد المجيد بن حمده، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية: دار العرب، تونس، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١١١؛ فرحات الجعبيري، البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية: ط٢، نشر جمعية التراث، القرارة، المطبعة العَرَبِيَّة، غرداية، ١٩٩٠م، ١/ ٣٠٧؛ مصطفى وينتن، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص١٥٠-١٥١.

أنَّ من أهم أهداف العقيدة وآثارها إشاعة الاطمئنان لدى الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨/١٣]؛ ولهذا نجد نموذجاً من علماء مختلفي المناهج في التعامل مع النص، يصلون إلى نهاية متوافقة في الموضوع، وهي الإقرار بعلم الله تعالى السابق لكلِّ شيء بما فيه مصير الإنسان، كما ذهب إلى هذا القاضي عبد الجبار من المعتزلة[1]؛ فالله تعالى كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣/٢١]، وهي الآية التي استشهد بها الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، عندما أنهى البحث، وانتهى إلى عجز الإنسان عن إدراك حقيقة الأمر، وأنه تعالى يفعل ما يشاء[2].

فهذا يدلُّ على أنَّ القضايا الملحَقة بأصل الإيمان بالقدر لا يمكن أن تصبح هي الأصول، وأنَّ هذه الآراء لا يمكن أن تصنَّف إلَّا في عداد تفسير الأصول، دون مرتبة الأصول الإيمانية، وهي جهدٌ بشريٌّ، وفهمٌ يمكن أن يتعدَّد، ويتنوع أيضاً.

٣ - **قضية خلق القرآن**: التي ما يزال البعض يتناولها بالمنهج ذاته الذي كانت عليه أيام الاختلاف بين المسلمين، ويُحيي بها نزعات ونزغات، وينتصر لأقوال فرَّقت بين المسلمين، وهي مسألةٌ تأتي بين أصل الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالكتب المنزَّلة، ولكن النقاش الذي كان بشأنها أخرجها كليَّة من أصول الإيمان، إلى قضايا جزئية وثانوية وفرعية، وكانت تتعلَّق بالإيمان بالله تعالى وقدرته وقيام حجته على عباده بكتابه؛ فتفرَّعت إلى ما جانَب كلَّ هذا من التساؤل عنه تعالى، وعن صفاته، والبحث عن حقيقة كلامه، بل وحتى عن أنواعه وأصنافه، مما لا طائل من ورائه؛ فضاع الناس

---

(١) ينظر: عبد الجبار أبو الحسن، تنزيه القرآن عن المطاعن: المطبعة الجمالية، مصر، ١٣٢٩ هـ، ص ٠٩.

(٢) ينظر: امحمد بن يوسف اطفيش، شرح الدعائم شرح بعض منظومات ابن النظر العماني المسماة الدعائم، طبعة قديمة، ١٣٢٥هـ، ١/١٦٧.

جراءها، وثبت بذلك أنها إنما نشأت عن تفسير بشريٍّ للأصل العقديّ، وللنص القرآني، تفسيرٍ في كل الحالات يعوزه الدليل، ويبقى في دائرة احتمال الصحة والخطأ.

ويظهر جليّاً - مع قضية خلق القرآن - تأثيرُ البيئة العلمية والسياسية أيضاً على الفكر البشري، فإنها لم تكن قضية ظاهرة مستحوذة على العقول مشغلة للناس أيام الرسول ﷺ ولا مَن بعده من الخلفاء، ولكن كان ذلك سريعاً ويسيراً مع من جاء بعدهم.

فقد ظهر جليّاً أنَّ هناك فَرقاً، بل فروقاً، بين الأصل العقديّ كما أقرَّه القرآن الكريم والسنة النبوية، وبين ما أنتجه الاجتهاد والنظر البشريين تجاه الأصول، فالأصول الواردة عن وحي الله تعالى، تتحقق فيها شروط الأصولية، أي قطعية ثبوتها ووضوحها، وعدم الاختلاف فيها؛ بينما الأصول المذهبية، والاجتهادات البشرية، لا يمكن اعتبارها إلَّا تفسيراً للأصول العقدية ترتبط وتتعلق بها تعلق تفسير وتوضيح، أو تقسيم وتنويع.

ويدخل في هذا الاعتبار ما كان خاصّاً بمذهب إسلامي، أو تيار فكريٍّ، مما سمي أصولاً للدين، لكن ينبغي أن تسمَّى على الأرجح أصولاً للمذهب.

وما دامت تفسيراً للأصول الإيمانية فينبغي أن تسمَّى الأصول التي اختلف حولها المسلمون، هذه التسمية التي تتيح مساحة لحرية الرأي والقول، وتقرِّب القلوب، وتتيح إمكانية اللقاء، ما دام المختلفون يضعون اختلافهم في مقامه الحقيق به.

إمكانية تحقيق الوحدة بالفصل بين الأصول العقدية وتفسيرها:

بالفصل بين الأصول الإيمانية وما طرأ عليها من تفسير، وما دار حولها من مواقف، بناء على الآراء الخاصَّة بشخصية عالم أو بمذهب؛ فإنه يبدو من الممكن أن تتحقق وحدة المسلمين.

فلا تكون الأصول العقدية إلّا ما جاء صريحاً في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة التي لا خلاف فيها، وهو ما يرجع الأمّة الإسلامية إلى أصولها، وتُدعى إلى ما كان يدعو إليه الرسول عليه السلام، لا إلى ما انتهت إليه تصوُّرات الناس من بعده رغم أهميتها، لكن لا ينبغي أن تكون بديلاً عما جاء به ﷺ.

ويفرض هذا الفصل وجود نصّ الوحي الذي لا يمكن التقديم بين يديه بتحديد أصول غير ما جاء به النصُّ، إلّا من قبيل تقريب الفهم، فتكون هذه الأصول التي يراد لها أن تعبِّر عن الدين تفسيراً لما جاء به الوحي، وليست هي الوحي ذاته، فيكون الفصل واضحاً بين النوعين، وتُخصَّص الأصول العقدية حينئذ بما ورد في النص، وبالتحديد في أصول الإيمان الستَّة، وما عداها من قضايا العقيدة التي يتدارسها الباحثون قديماً وحديثاً، وما فرضته المتون، هي من فروع العقيدة لا من أصولها.

وهذه الفروع من جملة ما ورثه المسلمون عبر العصور، وما تراكم في تراثهم من مفاهيم وتفاسير، وما عاشوه من قضايا وأحداث، جعلت في الأخير مضمون متون العقيدة وعلم الكلام أحسن حامل لتاريخ المسلمين الفكريِّ، فكلّما استعظموا مسألة ورأوا أنَّ الخلاف فيها قادح في الدين، رفعوها إلى مقام العقيدة وبوّؤوها مكانة تكون فيها من الأصول، أو على الأقل من الفروع العقدية[1].

وإذا تم الأمر بهذا التصنيف بين أصولٍ وفروعٍ في العقيدة، تحقَّق المقصد الشرعي؛ وهو التيسير على الناس، وإشاعة الرضا والطمأنينة في القلوب، وهذا من شأنه أن يعزز الدعوة إلى إعادة صياغة هذه الأصول، وتحديدها بما يتوافق مع القرآن الكريم، واستبعاد ما لا يعضده دليل، تخفيفاً على المؤمنين وتيسيراً.

---

(١) ينظر: عبد المجيد النجار، إحياء الفكر العقدي في مواجهة التحديات، أو تجديد الفكر العقدي، ص ٥٦.

وهذا الفصل بين الأصول الإيمانية الستة والفروع العقدية لا يعني الانتقاص من الأصول المذهبية، ولا إنكار تفسير العلماء للأصول الإيمانية، ولكن يضع كلًا في مقامه، ويحفظ له أهميته، ويُرتِّب في هذا الفصل الأصل قبل الفرع، ويظهر مقام الفكر البشري من مقام الوحي الإلهي، من غير أن يهيمن التفكير البشري على النص، فيكون سبباً في الحدِّ من الانتفاع بالنص.

لذا نجد أنَّ الفصل بين الاثنين أمرٌ ميسور؛ لأنَّه لا يؤثِّر سلباً في إيمان الإنسان، بقدر ما يفيده في ترسيخ ارتباطه بربه وتعلُّقه به؛ وعند الفصل يصل المسلمون إلى المنطقة الوسط والقول الجامع في الاعتقاد؛ لأنَّ الأصول الإيمانية الستة تستجمع أسباب هذه الوحدة من خلال طبيعة هذه الأصول:

- فهي ثابتة بالقرآن والسنة الصحيحة؛ إذ نزل بها نص الوحي، ودعا إليها الرسول ﷺ.

- وعليها بنيت كل أجزاء العقيدة وفروعها، وكلُّ التفسيرات المتوالية عبر الزمن.

- وقد وقع الإجماع حولها، ولم ينقل أيُّ خلاف فيها.

فكانت بحقٍّ أصولاً، غير مختلف حولها، ولا يمكن الاختلاف عليها البتَّة، لأنها تشكل قاعدة الإيمان، وأساسَه وأركانه، ولا يمكن أن يبقى بزوالها إيمان ولا اعتقاد، باتفاق أهل الإسلام.

وهذه هي الوحدة التي يراد أن يصل إليها المسلمون، حيث يمكنهم أن يجتمعوا على أصول متَّفق عليها، دون أن يلغوا اجتهاداتهم الفردية أو المذهبية، حتى لا تكون دعوة إلى اللامذهبية، ولكن أيضاً دون أن يحدثوا شقَّة بينهم، بسبب تعدد رؤاهم وآرائهم؛ فتعتبر مظهرَ قوة الإسلام وسعته، حيث يستوعب أنواعاً من التفكير لا تختلف على الأصول، وتتجه وجهة واحدة هي التوحيد، والإيمان بالله تعالى.

دور توحيد الأصول في وحدة الأمة:

تكمن أهمية توحيد الأصول العقدية في كونها من أهمّ أسباب تحقيق وحدة الأمّة الإسلامية؛ ذلك أنَّ مِن أهمّ أسباب فُرقتها اختلافها على أصولها، وعلى تفسير هذه الأصول؛ لذا يمثّل عامل توحيد الأصول العقدية الحجر الأساس في الموضوع؛ لأنَّ العقيدة هي ركن هذا الدين وعماده، وهي جملة من القناعات والتصورات حول الوجود المشاهد، والوجود المستقبل في الغيب إلى يوم القيامة؛ فأهمية توحيد الأصول العقدية ترتكز على كونها ضرورية في "نظرية الوجود" و"نظرية المعرفة"، وعلى كون الاختلاف عليها هو أعظم أسباب فُرقة المسلمين وتشتتهم وذهاب ريحهم.

وتوحيد الأصول العقدية في الأصول الستَّة يفتح المجال لحرية التفكير والرأي حول الفروع والتفسيرات؛ لأنها تصبح من إنتاجٍ بشريٍّ ومن تفكير البشر، وهذا مما لا يُفرض فيه الوحدة، بل ربما التنوُّع هو المطلوب؛ لأنه يمكّن من نماء الفكر البشري، ومِن صلاحية الإسلام لكلِّ زمان ومكان، وشموليته، فلا يُحصر في فكر رجلٍ واحد ولا مدرسةٍ واحدة، بل يصبح مجالاً فسيحاً لتبادل الرأي والتداول على التفقه من علم الله تعالى الواسع، كما يرى عبد المجيد النجار أن من أسباب انحسار حرية الرأي بين المسلمين التضييق في الأصول العقدية، ويقول: «ولكنَّ المتأمل في العلَّة الأصلية الجامعة لمظاهر هذه الفُرقة جميعاً على اختلافها، لا يعدو أن يجدها جلية في انحلال الوحدة الفكرية بين المسلمين (....)، ثم لا يعدو أن تقف على أنَّ انحلال هذه الوحدة يعود إلى سبب أصلي هو الانحسار الواسع لحرية الرأي في العالم الإسلامي»[1].

ويمكن عن طريق توحيد الأصول العقدية في أصول الإيمان الستَّة

---

(١) عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي، ص ٧٠.

الوصولُ إلى نتائج إيجابية، تسهم في حلِّ كثير من مشكلات الداخل الإسلاميِّ بخاصَّة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- اليسر في التعامل مع الدين:

لقد امتنَّ الله تعالى على عباده بأن أوحى إلى رسوله ﷺ ديناً قيِّماً لا عوج فيه، ديناً فيه يسرٌ وتيسيرٌ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]، وبيَّن أنه ينقل عبده إلى يسرٍ بعد كلِّ عسرٍ، وقال عزَّ من قائل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٩٤/ ٥-٦]، وغيرها هذه الآيات البينات كثير من الأدلة على يسر الإسلام.

فمِن شأن توحيد الأصول العقدية التيسيرُ على المكلَّفين فيما يُطلب منهم، فقد كان الرسول ﷺ لا يطلب من الناس أكثر من النطق بالشهادتين، والإيمانِ بما جاء في القرآن الكريم المنزَّل عليه، بعيداً عن التكلُّف والتعقيد؛ فالاقتصار على الأصول الإيمانية الستَّة يحقِّق هذا اليسر، ويقرِّب المسلمين إلى بعضهم، ما داموا يؤمنون بأصول موحَّدة؛ هذا خلافاً لما أورثه التعصُّب للأصول الخاصَّة من شُقة وبُعد بين المسلمين، ومن انقطاع أواصر الصلة بينهم، بما يفرضه البعض من مفاهيم يعتبرونها ضروريةً، وبالتالي اتخذوا كثيراً من الأحكام القاسية في حقِّ بعضهم بعضاً بسبب هذه الأصول المستحدثة.

فاعتبار الأصول العقدية هي الأصول الإيمانية الستة التي يجب الإيمان بها، يمكِّن من التخفيف من مكانة الأصول المدرسية المذهبية الخاصَّة، ويجعل التديُّن بداية من الاعتقاد أمراً يسيراً، وفي متناول المكلَّفين، لا تعنتهم كثرةُ المصطلحات، ولا تعدُّد المفاهيم.

٢ - حرية الرأي بين المسلمين:

توحيد الأصول العقدية في الأصول الإيمانية من أهم آليات إتاحة فرصة حرية الرأي بين المسلمين، إذ يُصبح الأصلُ العقديُّ غير محتكر في فكر

واحد، ولا مذهب واحد، بل يتوزَّع الناس والمذاهب أمر تفسير هذه الأصول، مع مراعاة حدٍّ أدنى من القاسم المشترك بين أهل العلم من الدارسين؛ فلا يصبح التفسير منتهياً، ولو أنَّ له ضوابط تمنع من الغلو والشطط في نتائج التفسير ومناهجه قبل ذلك؛ وهنا يمكّن المسلم من حرية الرأي، ما دام التفسير غيرَ المفسَّر، والأصل العقدي غيرَ تفسيره؛ فلا يُتحرَّج من الوقوف موقفاً دون آخر، كما لا يضيِّق من دائرة الحركة الفكرية.

فلا يَقضي على الإسلام مع شموله وسعته - وهو من علم الله تعالى الواسع، وهو العليم الحكيم - فهمٌ بشريٌّ، يختزله في مفاهيم إنسانية؛ مع أن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩/١٨]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧/٣١]؛ فما أوتي العالمون من العلم إلا قليلاً، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥/١٧].

فما قدَّم المسلمون من تفسير لبعض الأصول لم ينتهِ بعد، وبعض هذه التفسيرات لم تقدم جواباً كافياً في موضوعها؛ ولعل أبرز شاهد على هذا قضيةُ "القدر"، ومعادلة "الفعل الإنساني وحريتُه"، وتدخُّل إرادة الله تعالى، فمن المسلَّم به إيمانياً أنَّ الله تعالى لا يظلم أحداً، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩/١٨]، وأنَّ الإنسان مكلف مسؤول عن عمله، وأنَّه تعالى قدَّر كل شيء من قبل أن يوجِد الإنسان؛ فكيف يجمع بين هذه الأطراف؟

ولم يُجدِ إلى يوم الناس هذا سوى التفويض، لكن لم يقفل الباب على أهل العلم والتفسير أن يحاولوا في مستواهم، دون أن يشغلوا العامة ويفرضوا عليهم شيئاً لم يفرضه الله تعالى؛ فالتفويض لا يستلزم ضرورة الحجر على العقل.

وكذا القول في مسألة الصفات التي ما زالت مثار جدلٍ، لم يمكن البتُّ فيها، إلّا من خلال اتخاذ البعض مواقف، ومحاولة فرضها على أنها هي الصواب، وهي الحقُّ، في موضوع ليس فيه للإنسان أكثر من السماع والتلقِّي؛ لكنه أصبح يخوض في عالم ليس له فيه من العلم إلّا بقدر ما سمح الله تعالى به لعباده؛ وهو قليلٌ؛ ولكنَّه قليلٌ يكفيهم ويُنجيهم، فكيف يغلق باب التفسير فيما لم ينته تفسيره؟

إلا أن النظر الحكيم في الموضوع يقتضي أن يُنبه إلى أنَّ حرية الرأي في هذا المجال ينبغي أن لا تفهم تطاولاً على النصوص، ولا تقديماً بين يدي الله تعالى، بل يكون للرأي مجالٌ يتحرك فيه، لا يتجاوزه، ولا يدعي علم ما لا يعلم؛ ولا يدعي كذلك نهاية العلم عنده؛ بل يبقى دائماً محتملاً لتفسير غير تفسيرِه.

فبين الحجر على العقول وإلغائها - وهي من نعم الله تعالى على العباد - وبين تطاول الرأي على النصِّ الموحى به منزلة وسط، لا تلغي العقل، ولا تجعله قاضياً على النص.

والفصل بين الأصل العقدي وتفسيره، مما ييسِّر وحدة الأمَّة ويقرِّب أفرادها إلى بعضهم، من خلال الوصول إلى هذه الحالة والوضعية التي تحدِّد مجال استعمال العقل والرأي، وحدوده، وتتيح مجالاً لحرية الرأي والتفكير في إطار الضوابط الشرعية.

٣ - التخفيف من حدَّة الانتماءات المذهبية الضيقة:

لا شكَّ أنَّ مِن أهمِّ أسباب الفُرقة، وغياب الوحدة بين المسلمين، ظهورُ الانتماءِ المذهبيِّ، وتميُّز الآراء، وتمايزها، وبالتالي التعصُّب للمواقف، والحدَّة في ذلك التعصُّب؛ مما لم يكن عليه الإسلام في أيام الرسول ﷺ إلّا أنَّ زوال هذه المذاهب لم يعُد أمراً ممكناً ولا مطلوباً، بل أحياناً كثيرة كانت

المذاهب نعمةً، وثراء علمياً، وتبقى كذلك ما لم تتحوَّل إلى التعَصُّب، وإلى الادِّعاء، وإلى التشدُّد في المواقف.

ومِن أسباب التعصُّب عدم توحيد أصول الاعتقاد والإيمان، توحيداً يُسهم في التخفيف من حدَّة التوتر بين أطراف اختلاف الرأي، وبتوحيد الأصول يظهر الحدُّ الفاصل بين المذهبيِّ وبين الديني العام، فلا يُعتبر الموقف المذهبيُّ هو كلُّ القول في الدين، ولا يساويه، بل مجرَّد رأيٍ فيه محتمَل وغير مستبعد، فتخفُّ وطأة التمذهب، وتصبح مصدر تنوُّع، ومجال استباق إلى الخير، ولا تتحوَّل سببَ اصطدام، بقدر ما تتحوَّل إلى مجالٍ خصبٍ للحوار والجوار الحسن، عوض ما استُغلَّت له من أجل إثارة الصِّدامات والنعرات، والتوترات بين المسلمين، منهم أحياناً، ومن غيرهم أحياناً أخرى.

وهذا راجع في جانبٍ مهمٍّ منه إلى سوء التعامل مع الأصول الإيمانية والاستبدال بها أصولاً مذهبية حلَّت محلَّ الأصل الحقيق بالاهتمام، فغدت بذلك سبباً للفُرقة، والحالُ أنَّ الأصول الستة كانت سبباً أساسيّاً في الوحدة الإسلامية؛ ولما لم يكن الفصل بين الأصل العام وتفسيره، والأصل المذهبي الخاصِّ، ظهرَ الإقصاءُ، واتخاذ المواقف المتشنِّجة، على أساس اعتبار الحقّ مقتصراً على فهم بعينه، واعتبار كلِّ فهم آخر خارج الدائرة، وبعيداً عن مراد الله تعالى؛ فكان الصراع المذهبيُّ بديل الوحدة الدينية العقدية، وهو أثرٌ من القبول والرفض وفق الانتماء الطائفيِّ الصِّرف.

والفصل بين هذه الأجزاء (الأصل الإيماني، والتفسير البشري، والأصل المذهبي)، وتنزيل كلِّ جزء منزلتَه كفيلٌ أن يسهم في توحيد الأمَّة وإبعاد خطر التعصب، أو التخفيف منه على الأقلِّ.

٤ - مراجعة المنظومات التربوية:

تعتبر المنظومة التربوية أعظم بوابة لوحدة الأمَّة، وفي مجال التربية الإيمانية بالخصوص؛ إذ فيها يتم صناعة شخصية المسلم، وعبرَها يتمُّ غرس

معاني الوحدة الإسلامية؛ عندما يتمُّ التخطيط لها ورعايتها في إعداد برامجها، فهي أجدى وسيلة في الحفاظ على مكسب وحدة المسلمين.

وكلَّما أصاب الأمَّة فُرقة أو ابتعاد عن صفوف الوحدة، كان من أهم الأسباب سوء فهمهم للأصول الدينية، أو سوء استعمالهم للمضامين الشرعية، مما يستدعي المعالجة من خلال مراجعة أساليب البحث والتدريس ومضامينه.

وتكون المنظومة التربوية رافداً؛ بل طريقاً رئيسة إلى وحدة المسلمين، ولكن عندما يحسَّن إعدادها من حيث منطلقات المناهج، وإعداد المكوِّنين في إطارها؛ ففيها يتم صناعة التجانس الفكريِّ المعرفيِّ، والتقارب والتعايش بين أبناء الأمَّة الواحدة؛ ذلك «أنَّه ما من منهج معرفي يسود في أمَّة إلَّا كان بسبب من تجانسٍ إيديولوجيٍّ فيها؛ فإذا ما توحَّدت في تغيُّر إيديولوجي يطرأ عليها، توحَّدت أيضاً في منهج فكريٍّ جديد، كذلك إذا ما تشتت في عقيدتها الفلسفية أو الدينية تشتت أيضاً في منهجها المعرفيِّ»[1].

فهناك تلازم بين التجانس المعرفي والتجانس الإيديولوجي، وبالتالي التجانس العقدي؛ لأنَّنا لا نتصوَّر أمَّة تتَّحِد إذا لم تتَّحد منظومتُها المعرفية، ومنظومتها التربوية على الخصوص، ولا يجدي نفعاً التجانسُ الفكريُّ بين أهل العلم إذا كانت المنظومات التربوية تعمل في اتجاه معاكس لهذا التجانس؛ ويكون الهدم عندما تصبح المنظومة منظومات، والمناهج متضاربةً، والتربيةُ متعددة الاتجاهات والمشارب، فلا يمكن بحال أن يجتمع الذين تربَّوا على منظومات متضاربة، مما يستدعي إعادة النظر في المنظومات التربوية في البلاد الإسلامية؛ لأنَّ المنطلق الصحيح لوحدة الأمَّة يكون منها، وعن طريقها يتمُّ اختصار السبيل إلى الوحدة المنشودة، وإهمالها يسبِّب ضياع الجهود، وتوقُّف المشروع، بل قد تكون المنظومة غير المنسجمة مع الوحدة أكبر معوَل هدم لصرح الوحدة.

(١) النجار عبد المجيد، دور حرية الرأي، ص ٣٢.

وفي المنظومة التربوية يتمُّ صناعة الوحدة من خلال توحيد الأصول الإيمانية، وهذا البناء يمر عبر تدريس العقيدة، التي تتضمن أسس التوحيد ومن أهمها[1]:

- وحدة المصدر وإلهيته.
- شمولية تصور الوجود.
- توحيد الخلق في اتجاههم إلى خالقهم وعبادته.
- وحدة الأحكام التي تسيِّر حياة المسلم.

وهذه الخصائص لا يمكن أن تثمر في ظلٍّ تشتُّت التصوُّر السليم للوحدة، والتشتتِ في اتخاذ أصول مختلَفٍ عليها؛ بل من الضروري على الأمَّة أن تتفق في أصولها العقدية الإيمانية، وتفتح المجال للاختلاف في التفسيرات دون أن تكون سبباً للتنازع، على منهج القرآن الكريم الذي أرشد المسلمين إلى عدم الخلاف عند الاختلاف، فالله تعالى أعلَمُ بعباده، ويعلم ابتداءً أنهم مختلفون، فمنعَهم من التنازع لأنه يفضي إلى الفشل والضعف، ولم يمنعهم من الاختلاف لأنه سنته تعالى بين العباد، وفيه منافع للناس، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/٤٦].

فإذا قامت المنظومة التربوية في البلاد الإسلامية على أساس توحيد الأصول العقدية الإيمانية، وتنزيل التفسيرات والأصول المذهبية إلى فروع العقيدة، تكون بذلك قد قدَّمت خدمةً جليلة للأمَّة من خلالها تمهِّد الطريق العملية والواقعية للوحدة، وللتقريب بين أبنائها؛ بما تنتجه من ذهنيةٍ تقبُّلِ

(١) ينظر: مصطفى وينتن، دور تدريس العلوم الإسلامية في ترسيخ وحدة الأمة، الدرس العقدي نموذجاً، أعمال الملتقى الوطني، حول: "أثر العلوم الإسلامية في تفعيل التكامل المعرفي والإقلاع الحضاري"، جامعة الأغواط، الجزائر، ٠٥ و٠٦ مايو ٢٠١٥م.

الآخَر، وزرع أخلاق الاختلاف وأدبه، وإشاعة روح التجانس، ونبذ المسارعة إلى الأحكام القاسية المنفِّرة، والمُقصية للغير بسبب اختلاف وجهات النظر؛ حينئذ يُصبح التصوُّر واحداً في أنَّ هذا الدين يَسَعُ الناس الذين انتموا إليه جميعاً، ويكون من مظاهر قوته أنه أقوى وأوسع من أن ينتهي عند شخص، أو يتوقَّف عند فكر مفكِّر معيَّن، أو مذهب لوحده.

ونجاح المسعى التوحيدي عبر المنظومة التربوية يتطلَّب العمل على مستوى المضمونِ التدريسيِّ كما يتطلب العناية بالمدرِّسين؛ من حيث تكوينُهم، وأخلاقُهم، وتصوراتُهم؛ لأنَّ إهمال أحد الطرفين يفسِد كلَّ المسعى، ويمنع الوصول إلى النتائج المرجوة؛ لأنهما مفاتيح الوصول إلى قلوب التلاميذ وعقولهم.

* * *

وبعدُ، فهذه بعض الجوانب التي تنتج عند النظر إلى الأصول العقدية نظرةً توحيديةً، وصياغتها بما يتيح وحدة الأمَّة، وهذا كلُّه من خلال إعادة النظر في الموروث التراثيِّ العقديِّ الإسلاميِّ؛ من حيث اعتبارُ الأصول العقدية على نوعين: أصول عامَّة هي أركان الإيمان الستة، ثم الأصول المذهبية الخاصَّة؛ وبعدها يأتي تفسير هذه الأصول.

ونحسب أنه يكمن وراء تشتت التصورات وشيوع الفُرقة وآثارها السيئة في الأمَّة، وانفراطِ عقد الوحدة في جسم الأمة الإسلامية، انعدامُ اعتبار هذا التصنيف وغيابه؛ مما جعل المفاهيم تتداخل، والموازنات بينها تفقد حقيقتها وتختلُّ؛ وانقلبت النتائج عكسية، فضخُم من شأن الأصول المذهبية ومن تفسيرات الأصول الإيمانية الشرعية العامَّة، على حساب أركان الإيمان، رغم أهميتها وضرورة الاهتمام بها؛ في مقابل الاهتمام المبالغ فيه بالتفسيرات، وبالأصول المذهبية.

وكان طبيعياً ومنطقياً أن تصدر المخرَجات على حسب المدخلات، وتتمثل في هذا الوضع من الفُرقة التابعة للانتصار للآراء والتفسيرات الخاصَّة، والأصول الخاصَّة بكلِّ انتماء.

وهكذا، يصبح الحلُّ المناسب إرجاع الأمور إلى نصابها، من خلال اعتبار الأصول العقدية الإيمانية هي أساس العقيدة لدى المسلمين، وهي أساسٌ وشرطٌ في توحيدهم، مثلما كان عليه الأمر على عهد الرسول ﷺ.

وهذا لا يعني إلغاء جهود السابقين، ولا الدعوة إلى توقيف الفكر والتفسير، بل ما سبق نعتبره رافداً للأجيال، ومن الضرورة البناء عليه، والاستمرار على هذا الدرب؛ لكن دون أن نفرضه على الغير على أنه هو الوجه الوحيد للحقيقة، ولا أن ننزله منزلة الأصول الإيمانية الموحى بها إلى سيدنا محمَّد ﷺ.

الوحدة
في توحيد الأصول الإيمانية

ما يزالُ التفكيرُ في وحدة الأمّة الإسلامية الهاجسَ والحلم المأمول منذ أن بدأت الفُرقة في الصفوف، ويعزى السبب - في الغالب - إلى ظهور الفِرق العقدية والتيارات المختلفة في الفكرِ الإسلاميّ، لمَّا أصبح كلُّ مذهب بما لديهم مقتنعين، وللحقِّ والصواب محتكرين، فلُقِّنت العامَّة من الناس في كلِّ مذهب أنَّ الحق - على سعته وعظمته - قد اختزله مذهبٌ معيَّن، أو فكرُ رجل عالم وعبقريته، وأنه لم يعُد خارج هذا المجال مقالٌ أو رأيٌ لأحد، ولا مكان لآخر إلَّا أن يعتقد ولا ينتقد، أو يعتزل ولا ينتمي.

لقد جنت الأمَّة الضنك من جراء التحجير على العقول في جوانب مختلفة من مظاهر التفكير، وعلى رأسها التفكير في المجالِ العقديِّ.

وتأسَّست مذاهب المسلمين متمايزة عن بعضها بمبادئها التي رفعتها إلى مرتبة الأصول العقدية، حينها لم يعد هناك مجال للتفكير خارج الإطار المذهبيّ، ورُفعت مكانة المذاهب إلى مقام الإسلام الرحيب، فكان هذا أوَّل عقبة أمام توحيد المسلمين؛ جعلتهم كلَّما فكَّروا في الوحدة عقَّدتهم عقيدتهم في أصولهم المذهبية، التي نزَّلوها منزلة الأصول القرآنية.

فقد أصبحت المفارقة عجيبةً: المذهب هو الإسلام، وهو الوجه الوحيد للشرع، وما عداه لا يكون إلَّا زيغاً وضلالاً لا يمكن أن يحتمله الوحيُ الإلهيُّ.

وما كان الدينُ الذي جاء به الأنبياء والرسل ومحمد - ﷺ - بخاصَّة، ليُختصر في جملة من الأصول المذهبية التي تكوَّنت عبر الزمن؛ بينما الأصول الإيمانية التي بيَّنها الله تعالى في القرآن الكريم هي مِن علم الله تعالى، وهو أعلم بما ينفع الإنسان.

لقد بات من الضروريِّ إعادة النداء إلى وحدة الأمّة؛ بل استئنافه واستمراره بعد المحاولات العديدة التي قامت هنا وهناك، واتَّخذ كلٌّ سبيلاً من السُّبل الممكنة، ولا يمكن الادِّعاء أنَّ سبيلاً واحدةً كفيلة بتحقيق المبتغى والمأمول، ولعلَّ في تعديد المحاولات وتنويعها، وتعديد زوايا النظر إلى الموضوع ما يتيح الوصول إلى المطلوب، ويفتح الباب لدخول مرحلة التحقيق.

ونحسب أنَّ من أبواب الدخول إلى هذا المبتغى تحديدَ الأصول الإيمانية كما جاءت في القرآن الكريم، فهي أساس توحيد المسلمين؛ لأنها هي الأصول التي دعا إليها الرسول عليه الصلاة والسلام، وجاهد في سبيل الله من أجلها، ولم يؤثَر عنه شيء مما عرف بعد ذلك في مباحث الدراسات العقدية والكلامية، وما تباحثه المسلمون من قضايا كانت فروعاً من التفسير الإنساني للنصِّ الإلهيِّ.

والمفروض ألَّا يكون الجواب في السؤال عن الأصول الإيمانية إلَّا الأصول التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم؛ إذ قال: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

فالذي ينبغي أن تبنى عليه وحدتنا هو هذه الأصول التي لم نختلف عليها، وقد وسِعت المسلمين جميعاً في مرحلة النبوة؛ إذ لم يكونوا يستشعرون نقصاناً فيها، ولم يتطلعوا إلى الاستزادة عليها، وكانت وحدها كافية لأن يدخُل الناس في دين الله تعالى أفواجاً.

فهل تَقصُر هذه الأصول في هذا العصر عن أن تعرِّف الناس بربهم، وبحقه عليهم وواجبهم نحوه، وأن تبني حياتهم بكلِّ سعادة وطمأنينة؟

الواقع أنَّ هذه الأصول الإيمانية هي التي مكَّنت الإنسانية التي آمنت أن تجد لها ظِلالاً تحت سماء الدنيا، بعد أن كانت تائهة حائرة، وأعلت شأن أقوام لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ولم يكن يُنظر إليهم، فلمَّا آمنوا وتعلَّقوا بربهم، نظر الله إليهم وغيَّر من حالهم وأوضاعهم، وجعل منهم أئمة إلى الحقِّ يهدون، وصيَّر العالمين ودَّهم يخطُبون.

وقد اتَّسمت هذه الأصول بالوضوح واليُسر؛ حتى في جانبها العدديِّ الرقميِّ فلم تتعدَّ الستة، واستغرقت ما يحتاج إليه البشر في التصوُّرات، وفي المبادئ التي ينبغي أن تسيِّر حياتهم، وفي رسالتهم التي بها يحيون في دنياهم، وفي مصيرهم الذي يتاح لهم أن يصنعوه ويختاروه بأنفسهم، دون إكراه.

يُضاف إلى هذه الخصائص أهمُّ وصف في تعريف الأصل، وهو كونه مما لا يُختلف فيه، فلم يُعرف أنَّ مذهباً من مذاهب جمهور المسلمين اختلف فيها، أو أنكرها، ولا يمكن أن ينكرها أحدٌ منهم لأنها استجمعت شروط القَبول، وتوفَّر لها ما لم يتوفر لأصل من الأصول التي نادى بها أحد أو مذهب؛ ولقد ثبتت بنصٍّ صريح صحيح قطعيِّ الثبوت قطعيِّ الدلالة، لا إشكال فيها ولا مدخل للتشابه يشوبها، وليست مثار جدلٍ في بيانها؛ فكان من اليسير فهمُها والإقرار بها، وتجسيدها واقعاً وعملاً.

وأمَّا الأصول المذهبية فإنها لا تعدو أن تكون تفسيراتٍ بشريةً، تتفاوت

أهميتها ودرجتها بين مذهب وآخر. وتختلف أحياناً حتى داخل المذهب الواحد؛ فسمِّيت بحقٍّ "أصول الخلاف" ولم تسمَّ "أصولَ الوفاق"؛ ذلك أنها بسمتها الإنسانية ومصدرها البشري حملت الاختلاف وتعدُّد الرؤى؛ ولم تبلغ شرعية النص القرآني ولا مصدرية الوحي التي تتيح لها إمكانية فرضها على الناس، وما ينبغي لها أن تبلغ هذه المكانة.

وإزاء هذه الدعوة ووجهة النظر يحقُّ أن لنا أن نتساءل:

ما شأن الأصول التي نادى بها كل مذهب على انفراد؟

وما مصيرها؟

بدءاً، لا يمكن إلغاءُ ما قدَّمه علماؤنا المسلمون عبر الزمن، مِن اجتهاد وجهاد وجهود علمية في مجالات مختلفة، ومنها مجال البحثِ العقديِّ الكلاميِّ، وليس من صالح الأمَّة التنكُّر لمثل هذا التراث الذي قلَّ نظيره في العالمين.

لكن في سبيل الوصول إلى قولٍ عدلٍ ورؤية حكيمة ومُنصفة، نرى أنَّ الأصول المذهبية تُعتبر جملة من مبادئ وتصورات؛ هي تفسيرات للأصول الإيمانية القرآنية، مقبولة في حدود تمييز فكرٍ عن آخر، واتجاهٍ من غيره، وهي بهذا على قدر أهميتها في الإطار المذهبي لا ينبغي أن تُرفع إلى درجة الأصلِ الشرعيِّ، ولا يمكن أن تنازعه هذه المكانة، ولا أن تكتسب القداسة التي تجعل مخالفتها مروقاً من الدين.

فإنَّ مِن شأن التفسير أن يبيِّن وجهة نظر المفسِّر، ولا يمكنه بحال أن يستغرق كل المفسَّر، بخاصَّة وأنَّ موضوع التفسير هو كلام الله تعالى، وهو الذي يصفه ويبين عظمته بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

ويقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٩].

وبقوله جلّ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/٢٧].

إنَّ نظرة متأنية في تاريخ المبادئ العقدية وظهور المذاهب الإسلامية، مع مقارنتها بالذي جاء به الرسول، عليه الصلاة والسلام، وما دوَّنه القرآن الكريم، تتيح لنا أن نخلُص إلى نتيجة مفادها أنَّ الأصول المذهبية جاءت متأخِّرة بزمن يطول ويقصُر حسب كلِّ مذهب، وأنها شكَّلت قراءة جزئية للنصِّ الأصليِّ الذي حمل المبدأ العقديَّ، وأنها كلَّها تدور في فلك المبادئ والأصول الإيمانية التي تضمَّنها القرآن الكريم.

فإنَّ الغالب على الآراء المذهبية أنها لم تستحدِث أصلاً جديداً في عقيدة المسلمين، ولو ظهر لبادي النظر أن بعض المذاهب ابتدعت أصلاً أو استأثرت به، فإنَّ هذا النظر لا يلبث أن ينزاح حين نرجع إلى الحقائق المصدرية لنجد أنَّ النصَّ الأصليَّ يحتمل كلَّ هذه الآراء؛ بل إنَّ العقلَ البشريَّ ليس له - ولا يمكنه - أن يبتدع في الفرائض العملية، فضلاً عن العقائد الإيمانية؛ إلَّا أن يخرج من دائرة المنهجِ الشرعيِّ، وهذا مما لا طائل في بحثه.

فلم نجد في الأصول الخمسة للمعتزلة شيئاً خارج إطار القرآن الكريم، سوى تغيير اللفظ، والصياغة، وتحديد القضايا التي بدا للمعتزلة أنه ينبغي أن تكون هي العناوين والأسماء التي تسمى بها هذه المبادئ.

كما أنه ليس في الإباضية وأصولهم أصل جديد على ما جاء به القرآن الكريم، ودعا إليه الرسول الحكيم، ﷺ.

ولا في أصول الأشاعرة ولا المحدِّثين مثل هذا؛ وهكذا في سائر المذاهب.

بل إنَّ تحرِّي الصواب يدفعنا إلى القول: إنَّ أصول المذاهب كانت قاصرة عن أن تحوي عظمة العقيدة الإسلامية، وأن تصوغها بروعة الصياغة

القرآنية والنبوية، وأن تستوعبها بكلياتها؛ فإنَّ بعض ما ورد في النصوص الشرعية صريحاً سكتت عنه بعض هذه الأصول المذهبية؛ مثل قضية "النبوة والأنبياء"، و"الإيمان بالملائكة"، وأظهرت قضايا كانت جزئية أو مسكوتاً عنها مثل: "خلق القرآن"، و"رؤية الله تعالى"، و"الأحكام والصفات"، بهذه المصطلحات والمفاهيم التي حَمَّلَها إياها العلماء الذين انتدبوا أنفسهم للدفاع عن العقيدة وعرضها وبيانها.

وبهذا نحفظ للأمَّة وحدتها وللمذاهب تميُّزها، ولا نضيِّع نعمة الوقت والجهد والطاقة في بحوث تجاوزها الزمن، ونتمكن من التجديد في عرض الدين ومخاطبة الناس بما يفهمون، وبما يدركون، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤].

وبهذا، نبقي الأمَّة على الفطرة التي تركها عليها رسولها محمد ﷺ كما نستفيد من الموروث الفكري الذي تركه الأوائل، ومن اجتهادهم في معرفة الدين وتفسيره.

وبهذا أيضاً نتمكَّن من الفصل بين الجانبِ العلميِّ الأكاديميِّ الصرف - بلغة العصر - وبين الجانبِ الاجتماعيِّ السلوكيِّ العمليِّ للدين، كما عُبر عنه قديماً: إنَّ هناك ما هو "مضنون به على غير أهله"[1]، فليس من الحكمة أن نحمِّل العامَّة قضايا عجز، حتى أهل العلم والاختصاص، أن يبتُّوا فيها بقول فصل لاشتمالها على الغيبِ الإلهيِّ، واختصاص الله تعالى بدقائقها من دون خلقه من البشر؛ ووسِعَ الخلقَ أن يسلِّموا فيها بالحقِّ للحقِّ، ولا يظنُّوا إلا خيراً، ويُرجعوا العلم للعالم الأجلِّ الواحد الأحد.

وسيبقى تراثُنا مَعيناً عذباً ومنبعاً ثرّاً وافياً بما يحتاج إليه أهل العلم مع تعاقب الزمن، يستلهمون منه مناهج البحث والدراسة، ويستفيدون منه

(١) "المضنون به على غير أهله"، عنوان كتاب للإمام أبي حامد الغزالي، في علم الكلام.

قضايا ومسائل يقيسون عليها ما يستجدُّ في زمنهم، ويستقون منه أجوبة أو طريقاً لأجوبة، وبدايات طريق العمل في مواجهة ما يستجد من قضايا عقدية وفكرية؛ وهي لا تنفكُّ موجودةً في كلِّ عصر إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها؛ هذا لأنَّ الفعلَ الحضاريَّ لا يؤسَّس إلَّا على مثله، ولا يمكن أن يكونَ مجتثّاً من جذوره.

وقد نتساءل: ما العائق دون الرجوع إلى الأصول القرآنية؟

وربما كان من الأحسن أن نتساءل: ما السبيل إلى تحقيق هذا الرجوع؟

لا نحسب هذه الدعوة خافيةً عن أهل العلم في الأمَّة، ولكنَّ الواقع أنَّ الانتقال بها إلى التجسيد قد حالت دونه عقباتٌ، هي في مجملها قيودٌ واعتبارات وقناعات ترسَّبت مع الوقت في الأذهان، من مثل: "إنَّ التقارب مستحيل"، و"إنَّ الحقّ مع الواحد لا يتعدَّد"، و"إنَّ الآخرين بالضرورة على خطأ".

وأسلمتنا هذه العقبة إلى حال أخرى، هي الأحكام التي يسلِّطها البعض على البعض بسبب الاختلاف؛ كأنما كان شأن المسلمين بعد الرسول عليه السلام أن يصبحوا قضاةً وحكَّاماً، يقسمون الرضا والسخط على العالمين. والحال أنَّ الرضا والسخط هما مما يختصُّ الله تعالى به.

لقد بات من الضروريِّ النظرُ إلى الموضوع، وتفكيكُ ما استعصى فيه واستغلق على المحاولات، وأصبح كأنه قدرٌ مقدور، محتوم على الأمَّة أن ترضخ له، وأن تستسلم لأمره استسلامها لما يُعتقد أنه قضاء من الله تعالى، ولا رادَّ لقضائه؛ مع أن عقيدة القضاء والقدر لا تدفع إلى الاستسلام إلَّا مع العمل والاجتهاد، ولا تقف أبداً دون المحاولات الجادة المخلصة التوجُّه، الواضحة الغايات والأهداف.

وفي هذه السبيل يبدو أنَّ مِن وسائل تجاوز الخلاف، وتخطِّي عقبة

التفرقة إلى رحابة الوحدة والتوحيد؛ النظرَ إلى الموضوع من منظورٍ منهجيٍّ علميٍّ، وآخر شرعيٍّ أخلاقيٍّ.

فأمّا الأوّل، فهو العمل على تحديد المصطلحات عند مناقشة القضايا العلمية.

وأمّا الثاني، فهو التورُّع عن إصدار الأحكام والتراشق بسهام التفسيق والتبديع لرجال الأمّة، وقد بذلوا مُهجهم في سبيل ما اعتقدوه هو الصواب، ورأوه وجهاً من وجوه تنزيه الله تعالى، وتعريف الناس بربهم، وإن بدا أنَّ المناهج وقع فيها خللٌ، فهذا لا يسوِّغ القدح في صاحب المنهج، واتخاذه هدفاً يُرمى؛ لنخرِّب بيوتنا بأيدينا قبل أن يخربها أعداء ديننا، ونُعين عدوَّنا على أنفسنا، ويصدق علينا قول الشاعر الحارث بن وعلة الجرمي:

قَوْمي هُمُ قَتَلُوا أُميمَ أخي ... فإذا رَمَيتُ يُصيبُني سَهْمي

إذا كانت هذه حالنا فهي حقيقة بأن تغيَّر، ولا تغيَّر إلّا بإذن الله تعالى، والله سبحانه وتعالى لا يغيِّر إلّا بما يلائم سننه، وهو القائل جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣]، وهو القائل تعالى سلطانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣/٨].

الإيمان ومعضلة المنهج

حين تتجرَّد العقيدة من "فاعليتها" تتحوَّل إلى طلاسم تحفظ عن ظهر الغيب؛ ثم تمسخ إلى جدال مشحون لا ينتهي؛ فتبتعد رويداً رويداً عن مساحة الحياة؛ لتترك مكانها لفلسفات وإيديولوجيات تبدو أكثر إقناعاً، وأقدر على الإجابة عن "حاجات الناس"،.وعن "أسئلتهم الحائرة".

لو أنَّ طالب علم في زهرة العمر سألكَ: ما هي المراجع التي تغرس فيَّ روح الإيمان، بيُسر ووضوح (هذا إذا كان ممن يقرأ ويطالع أساساً)؟... لو أنه سألك هذا السؤال، وهو غارق في متناقضات مما يعايشه في واقع المسلمين اليومَ، ومما يُزرع في مداركه من "أفكار" محكمة التشويه، عبر وسائل التواصل والاتصال، وبرامج التربية، وتقنيات الترفيه...

لو أنه سألك هذا السؤال، كيف ستجيب؟ وماذا تقترح عليه؟ وإلى أيِّ مصدر تحيله؟

من المتوقَّع ممن ألف الاختزال أن يحيلك إلى "العالِم النحرير"، وإلى "الكتاب الفريد"؛ مما أقنع نفسه أنه يحوي "علوم الأوَّلين والآخرين"، وأجاب عن أسئلة "المتقدِّمين والمتأخِّرين"؛ ذلك أنَّ اختزال "مشكلة حضارية"، في "نقطة واحدة"، وفي "جواب شافٍ كافٍ"، يعيدنا - ولا ريب - إلى عِقود من التخبُّط في متاهات "الاستحالة"، وإلى "عادات مشروطة" اكتسبناها لنبرِّر بها حجم عجزنا وقصورنا، بل وتقصيرنا.

❀ ❀ ❀

نعود ونسأل سؤال هذا الطالب الباحث عن الحقيقة؛ لنكتشف أنَّ ثمة "فراغاً كونيّاً"، ينخر في صلب "العالم الجواني" للمسلم فرداً، وللمسلمين جماعةً.

هَبْ أنك أحلتَه إلى مصدر في علم الكلام، مِن أمّهات الكتب[1]؛ ثم وقع على عشرات الصفحات فيها البرهنة (اللغوية، والأرسطية، والجدلية) على مسألة "خلق القرآن" مثلاً، وانتهى إلى أنه مخلوقٌ أو قديمٌ غير مخلوق، ثم أفدتَه أنَّ المسألة قطعيةٌ وجب عليه اعتقادُها، كما وردت في "المذهب"، ثم أغلق الكتاب وخرج إلى معمعة الحياة اليومية، ليكتشف أنَّ جمهور المسلمين غرقون في بحر من الموبقات والأزمات إلّا قليلاً، من مثل: الربا، وقتل النفس بغير حقٍّ، والظلم، والجهل، والعصبية، والبغي...

فيمَ أفادته هذه المسألة؛ حتى ولو حفظ أدلَّتها، وحفظ الردَّ على أدلَّة المخالفين، ثم استظهر كلَّ ذلك بامتياز؟

❁ ❁ ❁

وهب أنك، تفادياً لهذا الحرجِ التراثيِّ، أحلته إلى مراجع معاصرة، مما ألَّفه علماء أفاضل، غيرةً منهم، فبادروا إلى تجميع أبوابِ التوحيد، تحت مسمًى "عقيدة المسلم"، أو "العقيدة الصحيحة"؛ وعرضوا مادتهم بأسلوبٍ أدبي مبسَّط، وبمنهج مُيسّر، مدلَّل عليه، مما جمعوه من أدلة وبراهين؛ فهل ستكون قد انتهيت إلى المبتغى، وحللتَ المشكلة؟

لا ريب أنَّ "التأليفَ التربويَّ" المبسَّط الفعَّال، يستلزم ملكاتٍ علميَّة،

(١) ليس اللوم على علم الكلام، ولا على مصادره؛ ذلك أنها كانت ملائمة للعصر الذي كتبت فيه، وقد أدت المهمة التي أنيطت بها، بخاصة في مواجهة حملات التشكيك والإلحاد؛ ولا يعني ذلك كذلك أنها لا تحوي أخطاء ولم تكن سبباً لأخطاء؛ لكن اللوم على اعتقاد أنها - كما هي، دون تحديث - يمكنها أن تستجيب لحاجات هذا العصر، ولأذواق الأجيال اليوم.

ويستوجب قدرات ومواهب، ويستدعي إمكانات ووسائل، تفوق بكثير ما يحتاج إليه التأليف الأكاديميُّ المتخصّص والموجَّه.

ومثال ذلك أنَّ كتاباً واحداً - مثلاً - لمستوى الثانوية، في مادَّة الرياضيات، تفرَّغ له ستون عالماً في كندا (الكيباك)، من مختلف التخصُّصات، إضافة إلى فريقٍ فنيٍّ محترف، عارف بأذواق "الشباب"، مستوعب لتوجهات العصر، مدرك للأسئلة الحائرة التي تضغط على وجدان وقلوب هؤلاء الذين يؤلَّف لهم. . فهل يُقبل مع هذا أن نكتب نحنُ "مصدراً" في أكثر العلوم قداسة: العقيدة؛ لأهم شرائح المجتمع أهمية وخطورة: الأطفال؟! هل يجوز أن نكتب لهم بلغة لا يفهمونها جيِّداً، وبالأسود على الأبيض (كأننا في سبعينيات القرن الماضي)، بتصنيف لا يفقهونه، ولا يدركون مداه... وبالتالي لا يغريهم[(١)]؟

* * *

ويحلو للبعض أن يقول: القرآن وحده كفيلٌ بالجواب؛ ويسوق لرأيه آيات لا ريب في صدقها، ولا شك في فاعليتها؛ لكنه يعمد إلى "التغفيل" منهجاً، لينتهي إلى رأي اختاره ابتداء، عنوانه: "القرآن وكفى".

ولكن، ماذا عن "الفهم"، وعن "التفسير"، وعن "إنزال المعنى إلى أرض الواقع"، أي عن "تحقيق المناط" وتطبيقه على واقعنا الآن واليومَ، كما هو، لا كما نفترض أن يكون؟ أليس من الخطل أن يترك للجاهل بالأسباب، وللغافل عن حيثيات العصر، مهمَّة كبرى، قد تعجز حيالها أكثر العقول نباهة وذكاء؟

---

(١) نحيي بعض المحاولات التي تذكر وتشكر، وقد بدأت بداية حسنة في التأليف العقدي للأطفال، بتوظيف بعض مستلزمات المرحلة العمرية، منها: الرسوم، والتفاعل، والأنشطة التطبيقية... ونرجو لها مزيداً من التحسن.

ثم، ألم يعتمد الطرف الآخر على القرآن، و"القرآن حمال أوجه"، ليضلَّ الناس بأفكار يجتثها من سياقها، ويُلبس لأجلها كلام الله تعالى لَبوساً مشوَّهاً فضفاضاً؟

فهذه علموية، وتلك واقعية، وديمقراطية، وحرية للفكر والتدين، وداروينية، وعبثية... باسم القرآن، وتحت مسمى "الفهم الجديد"... وهكذا يُصنع الباطل بمقدمات منهجية خاطئة، ويسوَّق له باحتراف شديد.

* * *

وأدهى مما مرَّ، أننا حوَّلنا عقيدتنا السمحة إلى ساحة للتضليل والتكفير والتفسيق، فيما بين المسلمين؛ حتى تحوَّل الاشتغال بها - أحياناً - مرادفاً للاشتغال بتصنيف "الآخَر": إمَّا معنا أو ضدَّنا[1]. فإن كان معنا، فهو على الحقِّ المبين، حتى لو كان ظَلوماً غشوماً جهولاً؛ وإن كان ضدَّنا، فهو في ضلال مبين، حتى وإن كان خَلوقاً، محسناً، صدوقاً.

لماذا شوَّهنا معيار الحكم حتى غدا مجيزاً لسفك الدماء البريئة؟ داعياً إلى النهش في الأعراض الطاهرة؟ مبرراً للدمار والإفساد في الأرض بغير حقٍّ، وقتل الأبرياء بمسميات "ما أنزل الله بها من سلطان"؟

لماذا دنَّسنا ديننا، بمفاهيمنا القاصرة، وتصرفاتنا الحمقاء، وانحرافاتنا المتعاقبة، وجهلِنا المطبق، وجهالتنا الفتاكة؟... ثم أقنعنا أنفسنا أننا "نحن" (لا أحد غيرنا) عباد الله المكرمون، وأنَّ الله - حاشاه - معنا، في وجه

(١) يلاحظ أثر الآراء الكلامية المتطرفة في المسلمين اليوم، من خلال الفتن التي تقوم هنا وهنالك، في شرق العالم الإسلامي وغربه: العراق، سورية، الجزائر، ليبيا، مصر...، بل وقد انتقلت حتى إلى الجالية الإسلامية في الغرب. وانظر مثلاً "فتنة غرداية"، وكيف تم استثمار آراء تكفيرية، لتبرير قتل من اعتبر "خارج الملة والدين"، و"أشد على الإسلام من اليهود والنصارى". وغير ذلك من الأحكام المجتثة من مصادر علم الكلام، والفقه أحياناً.

أعدائنا (حتى ولو كانوا مؤمنين)؟ أليس هذا هو تصرف بني إسرائيل ذاته، حين أجيبوا: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٠].

لماذا عجزنا عن تقديم عقيدتنا - للأجيال المتعطّشة - صافيةً، ناصعةً، لا شيةَ فيها؛ لتكون لهم سفينة نجاة، أمام الأمواج المتلاطمة، للفلسفات والأفكار المنحرفة، وفي مواجهة وسائل التضليل والإعلام المدمرة؟

* * *

نعتقد أنَّ السؤال يجب - شرعاً وعقلاً - أن يُطرح، إلى أن نجد له الجواب؛ ذلك الجواب الذي يصدق عليه أنه: "بسيط طيَّ المعقَّد، ومعقَّد طيَّ البسيط".

بسيطٌ، فيما يبدو لأوَّل وهلة، لكن حين النزول به إلى "قاعة الدرس"، وإلى "موقع الإنترنت"، و"بهو البنك"، و"لوبي البرلمان"، و"ملعب الكرة"، و"شاشة الآيفون"، و"صفحة الفايسبوك أو التويتر"... هنالك يصير معقَّداً، غير بدهيٍّ، في حاجة إلى فكرٍ آخَر، بمقاييس غير التي ألِفناها...

باختصارٍ: مقاييس تليق بعصرنا، لا تلك التي استعرناها من زمن غير زماننا، أو من جغرافية غير جغرافيتنا... ولا شكَّ "أنَّ من يتخلف عن مواكبة عصره لن يملك ما يقدِّمه لإنسان هذا العصر"(١).

نعود إلى طالب العلم، وإلى سؤاله الحائر، المعبِّر عن الحاجة الماسَّة إلى الإيمان، والتوحيد، والعقيدة التي كانت خلاصاً وملاذاً للفتية "الذين آمنوا بربهم" فزادهم الله هدًى، وربط على قلوبهم، فقاموا وقالوا ...

لكنَّ المطلوب مِن طالب العلم اليوم أن يأوي - لا إلى الكهف؛ لأنَّ

---

(١) فتح الله كولن: الاستقامة في العمل والدعوة؛ ص٢٦.

المعجزة لا تتكرَّر - إنما إلى بحر الحياة، وغمار المعاش، يأوي بقلبٍ وجِلٍ، ونفسٍ تقية، وعقلٍ مُخبِت...

إنَّ هذا الطالب، يرفض اليوم منهج "العرض القديم" لهذه العقيدة، ويرفض مواضيع الكلام التي لا تعنيه في شيء؛ تلك المواضيع التي كانت ساخنة يوماً ما، ولكنَّها تجمَّدت اليوم وتكلَّست؛ لا لأنَّ العقيدةَ في بُنيتها يعتريها التكلُّس والجمود، لكن لأنَّ هذه المسائل، أساساً هي من "علم الجدال" لا من "روح الإيمان"؛ أو أنها مسائل من الإيمان، لكنَّها عُرضت بمنهج بشريٍّ قاصرٍ متقادمٍ قلباً وقالباً؛ هو منهجٌ شاخَ وهرِم، فبدا مثل دكَّان متهالك، في سوق من أسواق المعرفة، لا يُقنع زبوناً، ولا يجلب فائدة...

حقّاً، إذا فسد المكان فسد المكِين، وإذا تقادم الشكل نتن المحتوى وتعفَّن.

❀ ❀ ❀

ثم نعود إلى "المرجع أو المصدر" الذي يُقترح على طالب العلم هذا، فنجد حقّاً أننا لسنا جادين في خدمة ديننا، بنفس الجدية التي يخدم بها الناس أبسط مسائل حياتهم، أو يحقِّقون بها أصغر الاختراعات التكنولوجية والفنية والعملية(١)...

لسنا جادِّين؛ لأنَّنا تركنا المهمَّة بيد ثلَّة من المتخصِّصين في العقيدة، ولم تعُد تعني علماءَ النفس، والاجتماع، والحياة، والإعلام، والتربية، والفنِّ...

---

(١) في جميع التخصصات المعرفية والتكنولوجية، بل وحتى في الديانات والعلوم الإنسانية، ثمة مؤسسات تجمع الآلاف من الباحثين على صعيد واحد، لتدارس إشكالات ذلك المجال؛ ولمحاولة البحث عن الأجوبة العلمية، بما يسمى "خريطة التخصص"؛ فمثلاً في علم الأعصاب يعقد مؤتمر سنوي، يجمع أكثر من ثلاثين ألف باحث، من الجهات الستة للعالم. فمسائل التوحيد والإيمان، وتفسير القرآن، والسنة، والحديث... وغيرها، هل نالت منا هذا الجهد، وهذه الجدية؟

وغيرها من الفنون التي لها دور جوهري في الإجابة عن السؤال الحضاري الصعب.

لسنا جادِّين؛ لأنه حتى في مستوى "تخصُّص العقيدة" حوّلنا بحوثنا إلى "قراطيس" - نبدي بعضها، ونخفي الآخر - تعالج قضايا أكل عليها الدهر وشرِب، قضايا لا تمتُّ إلى مشكلاتنا الحضارية بصلة؛ ذلك أنَّ المهمَّ عندنا أن نحيل إلى العالِم الفلاني، وأن نستعين بالمصدر العلّاني، وأن نعرِّف المصطلَح المعرَّف، وأن ندافع عن "مذهبنا" الكلاميِّ على أنه الحقُّ المطلَق، وأنَّ غيره هو الباطل المطلق؛ ونحشر إلى الأدلةِ أدلةً أخرى... ذلك هو المهم إذا أردنا أن يُعترف بنا في زمرة "علماء العقيدة"؛ فنضخِّم عدد المتخرجين، ونكثر من بحوث التخرُّج، وننوع من المناقشات...

ثم ماذا؟

ثم تعال معي لنسأل عن الأثر في الصراع الفكري الحضاري الذي ينخر جسم أمَّتنا، وعلى الأثر في الشباب والشياب؛ أي في واقع الناس ويومياتهم... فلا نستنبت جواباً، بل ولا نجد ضرورةً للجواب؛ ذلك أنَّ العقيدة شيء والحياة شيء آخر في تصوُّرنا؛ وفي هذه البقعة "يفقد العلم معناه كلَّه، فأينما توقَّف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل؛ إذ يفقد الإنسان تعطُّشه إلى الفهم، وإرادته للعمل، عندما يفقد الهمَّة، وقوَّة الإيمان"[(١)].

لسنا جادِّين؛ لأننا أضفنا إلى مؤلفاتنا في العقيدة جرعات مسمومة من "التبديع، والتفسيق، والتضليل، والتشريك" ما أنزل الله بها من سلطان؛ وليس ذلك للكافر تحقيقاً، ذلك أنَّ الكافر صار هو "الحامي لحمى أوطاننا، الراتع في حقول بترولنا"، وإنما للمخالف لنا في المذهب، وللمباين لنا في الرأي والاختيار؛ فنرميه بجميع الأوصاف المستعارة من التراث أوان

(١) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي؛ ص٣١.

انحرافه، لننتهي إلى تبرير اغتياله، وتقتيله، ومحاربته... باسم الدين، والنصرة، والجماعة.

اقرأ معي هذه العناوين، التي يصادفها طالب العلم السائل عن عقيدته، بين ثنايا الكتب المشهَّرة في "النت"، وعلى صفحات "الفايسبوك"، وهو حريص على تعلم أمور دينه، وتشرُّب روح إيمانه:

* موسوعة الرَّد على الصوفية.

* أسود الأشاعرة والصوفية للرَّد على الوهابية، خوارج آخر الزمان.

* ضلالات فلان.

* إسكات الكلب العاوي...

* الطوفان الجارف لكتائب البغي والعدوان.

وعناوين أخرى كثيرةٌ، لا حصر لها ولا عدَّ[1]، يكفي أن تحدِّد الجهة والاسم، لتقرأ ما لا نهاية له من الأدلة على ضلال الجهة الأخرى؛ فلم يسلم من هذا التناطح فردٌ ولا جماعة، ولا مذهبٌ ولا مجتمع؛ ولا وطنٌ ولا بلد... فهل يُسأل هذا الطالب أن يؤمن إيماناً "حقّاً صافياً" خالياً من شوائب الشرك والنفاق، بعد إغراقه في بحرٍ من الفتن العقدية، المتحوِّلة إلى بحار من الدماء، في واقعه اليوميّ؛ وهو مع ذلك لم يحصل منا على مصدر أو مرجع أو عمل يشفي غليله، ويروي عطشه، ويرفع حيرته، ويقوِّي إيمانه، ويفتح مغاليق الأبواب أمامه، ويُعلي همته، وينشِّطه على عمل الصالحات، ويحميه من اجتراح السيئات...؟

عمليّاً، نخاطب الباحثين في مختلف التخصُّصات: ابتداء من العقيدة، إلى الحياة، والفن، والاجتماع... مروراً بعلماء التربية، والمشتغلين

(١) انظر: محمد باباعمي: صفين القرن العشرين؛ بحث منشور في مواقع الإنترنت، نشر في السنوات الأولى لانتشار الإنترنت في العالم العربي؛ نهاية التسعينيات.

بالتعليم... ندعوهم جميعاً ليفكّروا جديّاً في الأسباب الحقيقة للفتن التي ابتلينا بها، ولينظروا إلى العقيدة، أو بالأحرى إلى "إفساد العقيدة" (ظلماً وجوراً) على أنه سبب مباشر؛ ذلك أن كلَّ فعل تسبقه فكرةٌ، وأنَّ كلَّ فكرة لا بدَّ أن تتحوَّل إلى فعلٍ، أو إلى لا فعل (ذلك أن الترك فعل كذلك)...

ندعو هؤلاء الباحثين، ومَن يؤمن بقيمة العلم مِن المنفقين والمحسنين وأصحاب الرأي، أن يعقدوا النية لجهادٍ وهجرةٍ، تليق بظروف العصر ومتطلَّبات المرحلة؛ إنه جهاد إنتاج المعرفة (العلم النافع)، والحلول الحضارية الفعَّالة جماعياً، بأنجع المناهج، وفي أرقى المضامين، وأحسن الأشكال، مما يكون مُغرياً للجيل الجديد، جذَّاباً، واضحاً، سريعَ الأثر، عميق الغور، مولِّداً للعمل... ولا يتحقَّق ذلك على الوجه اللائق الصحيح إلَّا بمراكزِ بحثٍ متخصِّصة، أو فرقٍ للبحث متفانية، أو مؤسَّسات بحثية متطوِّرة... في العقيدة ابتداءً، لا في شكلها وأسلوبها المألوف، لكن في علاقة العقيدة بواقع الأمة ومآلها: في علاقتها بالمدرسة، والشارع، والقناة، والمصرف، والملعب، والبرلمان، والسوق، والجامعة... أي في أثر العقيدة في الإنسان طفلاً، وامرأة، ورجلاً... طالباً، وتاجراً، وحاكماً، وعالماً، وعاملاً...

هي دعوة للجدية إذن، ذلك أنَّ الحضارة تولد من رحم الاجتهاد، وتلج المجتمع من باب التربية، وتغادر الربوع من طريق الادِّعاء والغفلة، ويذوي عرفها من جهة الخمول والوهم والوهن...

فهل نحن جادون؟

معضلة المنهج

هل مناهج الاستدلال في العقيدة يقينية كلُّها؟

وهل بعض منها يقينيٌّ، والبعض الآخر ظنيٌّ؟

كيف نميِّز بينها؟

بل، ما هو المنهج الذي نحكم به على المنهج؟

وهل القول بهذا يستلزم بالضرورة التسلسل، والتسلسلُ باطلٌ عقلاً وضرورةً؟

إلى أيِّ مدىً أثَّرت المناهج في علم العقيدة؟ ولماذا تبدأ مصادر علم الكلام عادة بأبواب في العلم والجهل والسؤال، والحكم والدليل، والعقل والنقل، والحجية، والمحكم والمتشابه، والحقيقة والمجاز... وغير ذلك من المفاهيم التي تندرج بالضرورة في خانة المنهج؟

ثم، هل نحكم على رأيٍ (فرقة، مذهب، اختيارٍ عقديٍّ...) بناء على المنهج الذي اختاره، وصرَّح به؟

وهل نحكِّمه إلى المنهج الذي ارتضيناه نحن المخالفون له في الرأي؟

هل مشكلة الاستقراء (استقراء النصوص في حال العقيدة) تلقي بظلالها على مناهج الاستدلال في علم الكلام؟ وكيف يمكن أن ننتقل من محدودية استيعاب النصِّ لفظاً ودلالة، إلى القطع في الحكم؟

وإذا تسرَّب الظنُّ إلى نصٍّ (آية، أو حديث) بوجه من الوجوه، فهل نقطع عذر المخالف، لمجرَّد أنَّه خالفنا في المنطلق، أي في المنهج؟

ما هو الحدُّ الفاصل في العقيدة، بين القطعيِّ والظنيِّ، بين ما يُقطع فيه عذر المخالف وما لا يقطع؟ بين ما يجوز فيه الاختلاف ويوسَّع فيه، وما لا يجوز فيه الاختلاف ويضيَّق فيه؟

حين يقع الخلافُ المنهجيُّ حول أحاديث الآحاد: هل تفيد العلم والعمل معاً؟ أو هل تفيد العمل دون العلم؟ ويؤثر الاختيارُ المنهجيُّ كليَّة في المنحى العقديِّ، فالسؤال:

ما هو الأساسُ المنهجيُّ الذي بني عليه الاختيار؟ أهو البديهة؟ أم الاستنباط؟ أم الاستقراء؟ أم هو نصٌّ قطعيٌّ وارد في حكم الآحاد؟ وإذا كان كذلك، فأين هو؟

ثم هل نرتِّب على الخلاف أحكاماً تفسيقية، تكفيرية، وأحياناً تشريكية، ولا نجد حرجاً في ذلك؟

في كتاب (مشارق أنوار العقول) نقرأ نصّاً، لمسألة وقع فيها الاختلاف بين علماء المذهب الواحد (الإباضية في مثالنا)، فأراد المؤلِّف الشيخ السالمي - رحمه الله - أن يوجد لهم عذراً، فقال بعدما نقل رأياً للموافق حول مكان الجنة، بيَّن أنه "لا دليل، والسكوتُ أولى"، ثم استدرك وقال في حقِّ علماء المذهب الذين خالفوه الرأي، ولا دليل لهم، ممن قال بتعيين مكان الجنة:

"لا يقال إنه يلزم على هذا الرأي، على كون الدليل معدوماً، أن يكون القائلون بتعيينه قد تكلَّموا بلا علم، فيكون طعناً عليهم؛ لأنّا نقول: إنَّ نفي الدليل إنما هو بحسب ما ظهر للناظم، لا بالنظر إلى ما في نفس الأمر، فإنه يحتمل أن يكون لهم دليل لم نطَّلع عليه نحن، فهم محمولون على حسن الظن، وعلينا الوقوف عما لا نعلم".

ما أعظم هذه القاعدة المنهجية الإيمانية، لو أنها طبِّقت على المخالف في المذهب كذلك. ولو أحسِن الظنُّ بالمخالف كما أحسن الظنُّ بالموافق لزال الكثير من الخلاف؛ لكننا نقرأ عن المخالف في مسائل الكلام أحكاماً مخرجة من الملّة، في جميع مصادر المذاهب الإسلامية؛ من مثل: "يهود هذه الأمة"، "مجوس هذه الأمة"، "تشبهوا بالمشركين"... وغيرها من الأحكام التي تستدعي مراجعة جذرية في أصول الإيمان، والتمييز بينها وبين فروع العقيدة، حتى لا نهرب من محذور التشدُّد ونقع في محذور التسيُّب.

ولعلَّ البحث حول الإيمان ومعضلة المنهج[1]، يضع الإصبع على الداء، ويسهم - ضمن من أسهم من قبل - في تقريب الشقَّة بين المسلمين؛ ولا ريب أنه ليس الأوَّل، ولن يكون الآخِر؛ ذلك أنَّ العلم سجالٌ وتداولٌ مستمرٌّ إلى يوم القيامة، فلا حَجر ولا ادِّعاء؛ ولكنه الاجتهاد المفضي إلى الصواب أو الخطأ، والمجتهد مجازى في كلا الحالين، والحمد لله.

وسنعمد إلى سوق أمثلةٍ كثيرةٍ، من مختلف المصادر، حول الأخطاء التي مصدرها المنهج[2]، دون ذكر صاحبها، ولا المصدر الذي نقِلت منه[3]؛ حتى لا ينشغل القارئ بعملية التصنيف (معنا، أو ضدنا)، وحتى لا يتحوَّل المثال إلى حكمٍ على تلك الجهة دون غيرها؛ ذلك أنَّ معضلة المنهج أصابت جميع مفاصل علم الكلام، بلا استثناء، والمحاولات القليلة للتصحيح، التي تسجَّل لبعض العلماء في بعض البحوث والدراسات، لا تزال محتشمة، وهي لا تمثل نسقاً منهجياً ذا بال، ولا تياراً فكرياً مؤثراً.

---

(١) يقول سيد قطب: "لما كانت هناك جفوة أصلية بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، فقد نشأ من هذه المحاولات تخليطٌ كثير، شابَ صفاء التصور الإسلامي، وصغَّر مساحته وأصابه بالسطحية، ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط، مما جعل مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة عن الإسلام".

(٢) انظر أمثلة من "الأخطاء في المنهج، من مصادر علم الكلام"، في الأدنى.

(٣) على هدي رسول الله ﷺ في اعتماده صيغة: "ما بال أقوام...".

ومعالجة معضلة المنهج في العقيدة، من مدخلٍ فكريٍّ، لها أهميتها الخاصَّة، ولها من يتَّخذها مصدراً، ويشكل قناعاته بناء عليها؛ إلَّا أنَّ المعالجة الفكرية ذاتها تبقى بعيدة كلَّ البعد عن حقل التخصُّص، وعن أهل الفنِّ، وعن صفوف العقيدة في الجامعات، وعن مؤلفات علماء الكلام المنشورة هنا وهنالك؛ وبالتالي فأثرها محدود جداً، وقد لا تؤتي ثمارها المرجوَّة في السياق الذي أُلِّفت له.

فمثلاً، لو قرأنا لمحمد إقبال كتاب (تجديد الفكر الديني)، أو لمالك بن نبي (وجهة العالم الإسلامي)، أو لعبد الوهاب المسيري (اللغة والمجاز)، أو لعلي عزت بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب)، أو لمراد هوفمان (خواء الذات)... فإننا سنخرج بذخيرة معتبرة مِن المنهج، الذي يشكِّل خلفية معتبرة للعقيدة وعلم الكلام، وللإيمان والتوحيد باعتبارهما علماً، وباعتبارهما واقعاً مُعاشاً؛ إلَّا أنَّ هذه المصادر، وهي أساساً مصادرُ "منظومة الرشد"[١]؛ تعدُّ في الوعي العامِّ - للمسلمين اليومَ - مجرَّد بحوثٍ فكرية مستقلَّة عن التخصُّص، لا يهتمُّ بها إلَّا خاصَّة الخاصَّة من طلبة العلم المشتغلين بالفكر وبالفلسفة.

وذلك رغم أنَّ هذه المصادر الفكرية حلَّت عُقداً كثيرة، يمكن أن نتخذها منطلقاً لحلِّ إشكالات عميقة في تراثنا الكلامي، من مثل عقدة "اللفظية"، و"الذَّرية"، و"ثنائية الروح والمادة"، و"العلاقة بين الفكر والفعل"، و"فقه التحيز"، و"مشكلة الحدِّ الفاصل"، و"التحليل بالنماذج"... إلَّا أنَّ مثل هذه المقدمات المنهجية تركن في جزيرة، والدرس العقدي يركن في جزيرة أخرى، نائية، لا جسر يصل بينهما[٢].

---

(١) لمعرفة مصادر وروافد منظومة الرشد، انظر: محمد باباعمي، وطه كوزي: من الكمون إلى الفعل الحضاري؛ ضمن سلسلة "خلاصة المعنى". طه كوزي: أزمتنا الحضارية.

(٢) لا يمكننا أن نخرج المصادر الفكرية من دائرة معالجة أصول الإيمان؛ ولقد صرح

ولا ريب أنَّ الحكم الفكري الفلسفي يُنظر إليه بعين الريب والشك في الدوائر الكلامية التقليدية.

يقرِّر أحد المتكلمين أنَّ "استدلالهم [أهل الفلسفة] العقلي إنما هو أمرٌ فلسفيٌّ، لا يثبت لقائله الحكم الإسلامي". وهو وإن صرَّح به في مقام القول بفناء النار، ثم نسبه إلى الجاحظ والعنبري نقلاً؛ فإنَّ خطأ هذا الحكم، وضلالة القائل به؛ ليس لأنه حكمٌ عقليٌّ وفلسفيٌّ، بل لأنه يصادم القطعي من الآيات والأحاديث، وإجماع العلماء بكلِّ فرقهم ومذاهبهم، وإلَّا فالمتكلمون أنفسهم يعتمدون مناهج فلسفية، ويبنون عليها آراءهم الكلامية.

= بعض العلماء أنَّ علم الكلام الجديد هو الذي يخاطب الناس من منطلق إيماني، لكن بلغة يفهمونها، أي بلغة العصر، مؤسسة على روح الإيمان.

روح الإيمان، وحقيقة الفرقة الناجية

نريد عقيدةً صافيةً نقية لا تشوبها الآراء الخاصّة، ولا التخمينات المفتعَلة، ولا الأدلّة الواهية...

عقيدةً تعقِد قلب المؤمن ولا تعقِّده، تجمع ولا تشتت، تقوّي ولا تضعِف، تحيي الأمل ولا تقتله، باختصارٍ:

عقيدةً تعيد ما فعلته في صحابة رسول الله ﷺ فتبني نفوساً كبيرة كِبر تلك النفوس، وعقولاً جبَّارة كما كانت تلك العقول، وتحقِّق انتصارات ساحقة كما كانت تلك الانتصارات...

لو أنَّ الكتابة في الإيمان والتوحيد كانت من النوافل، وجاز الإعراض عنها لغيرها، لهان الأمر، ولوجدنا العذر عند الله تعالى؛ لكن، ما دام الإيمان هو الأصل الذي يبنى عليه كلُّ شيء، والمقدِّمة التي تتبعها نتائج لا تحيد عنها، والسبب الذي تأتي المسببات بعده متعاقبة... فإنَّ في الاشتغال عنه تضييعاً لواجبٍ شرعيٍّ قطعاً، وإنَّ في الاشتغال به ترتيباً حقيقياً للأولويات.

لو سألتَ طالباً في معهد أو جامعة[1]: ما الذي درسته من العقيدة في حياتك العلمية كلِّها؟

---

(١) الحديث هنا عن جميع التخصصات في الجامعة: العلمية، والأدبية، والفنية... وغيرها. فالغالب في جامعات العالم العربي الفصل بين العلم والإيمان؛ إلَّا في بعض التجارب المشكورة، مثل: تجربة السودان في إعادة تصنيف العلوم، الجامعة العالمية بماليزيا... غير أنها تبقى في حاجة إلى فعالية في مستوى كونيٍّ عالميٍّ.

ترى، كيف سيكون الجواب؟

هل ننتظر أن يقول لنا: إنَّ الأرض قد أخرجت زرعاً مختلفاً ألوانه، بلا ماء ولا سقي... وإنما هكذا صدفة؟!

أو يقول: إنَّه صار عالِماً بين عشية وضحاها، ولم يعرف معلماً ولا كتاباً، ولا حلقة، ولا درساً؟!.

يقيناً، إذا قال لنا: إنني قد درستُ من العقيدة ما يكفيني، وارتويت من الإيمان بما يغنيني، فإنه يكون مثل الذي احتمل النتائج بلا مقدِّمات، والخير بلا بذل، والعلم بلا تعلُّم.

ولكن، إذا أنصف وصدق، فيقول لك: إنني قد تعلمت كلَّ شيء، ومارست كلَّ علم، وأشربتُ كلَّ فنٍّ... إلَّا الإيمان، والعقيدة، والتوحيد... فإنني أخذتها "هواية"، أو في "حلقات بينية"، أو من "قراءات متفرقة"، لا في فصول معمَّقة، ولا من أساتذة أكفياء.

هذه حال الإيمان في الأمَّة الإسلامية اليوم؛ ولذا فإننا لا يمكن أن ننتظر خيراً، ولا أن نتفاءل بالتمكين، وإن فعلنا كنَّا إلى الجهل أقرب منَّا إلى العلم.

فالقليل من طلبتنا يدرسون "نتفاً"، و"شذرات"، و"مقتطفات" من الإيمان، في أماكن مختلفة، ما بين مدرسة رسمية، وجامع، وحلقة...

والكثير منهم، لا يجد الفرصة المناسبة، ولا الوعاء اللائق ليأخذ فيه أصول دينه، وليقترب فيه من ربِّه أكثر وأكثر... فينشأ مسلِماً، لكن بالتقليد، يردِّد بعض ما علق في ذهنه عن الله تعالى، وعن الأنبياء، وعن اليوم الآخر... ولا يكلِّف نفسه عناء البحث عن الحقيقة؛ لأنَّه أساساً لا يؤمن أنَّها أولوية في حياته، وأولوية لما بعد مماته.

والكثير من أبناء المسلمين، يغشى المدارس الدينية، ويتعلَّم دروساً في العقيدة، ويجلس لشيوخ أكفياء، فيتخرَّج بعلم مقبول... لكن، للأسف، كما يقول الشيخ محمد الغزالي:

"قد كنتُ أرقبُ عن كثب ما تخلِّفه دروس التوحيد من كتبه المقرَّرة، فما كنتُ أجد فارقاً يذكر - لدى السامعين - بينها وبين شروح المعادلات الجبرية. كلاهما ترويض للعقل مبثوث الصلة بالفؤاد، فكان الطالب يذكر طائفة من الأدلَّة على الوجود الدائم لـ"واجب الوجود"، ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعالي، أو يختلج في بدنه عِرقٌ من الرغبة والرهبة نحو من سوَّاه، وألهمه فجوره وتقواه"(١)

ثم تساءل مستنكراً: "أفهكذا تُدرس العقيدة؟".

حقيقة الفرقة الناجية:

اعتادت مصادر علم الكلام، وكتب الملل والنحل، من جميع الفرق الإسلامية، على بناءٍ منهجيٍّ مقولَب، يرتكز على البحث عن الفرقة الناجية، من خلال الحديث الصحيح الذي روي عن رسول الله ﷺ بعدَّة طرق، فراحت كلُّ طائفة وفرقة تعتبر نفسها هي الناجية، وتحشُر الأدلَّة على ضلال غيرها من الفرق، وتحرِص حرصاً شديداً على تصيُّد مزالق المذاهب الأخرى، وعلى الانتقاص من علمائها، وعلى دحض أدِلَّتها بكلِّ الوسائل...

ثم يكون حرصها أشدَّ في الدفاع عن نصاعة مذهبها، وعلى الإعلاء من شأن علمائها، وعلى اعتبار أدلَّتها "واضحة، بيِّنة، يقينية، لا ينكرها إلَّا جاحد".

ومن الأمثلة على هذا المنهج، نقل:

أولاً - يقول الإيجي في المواقف: "وأمَّا الفرقة المستثناة الذين قال فيهم: «**هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي**»، فهم الأشاعرة، والسلف من

(١) محمد الغزالي: عقيدة المسلم؛ ص٦.

المحدِّثين، وأهل السنة والجماعة، ومذهبهم خالٍ من بِدَع هؤلاء...ثم ساق عقائد أهل السنة"[١].

والغريب أنَّ الإيجي هنا لم يذكر فرقةً واحدةً، بل فرقاً عديدة مختلفة، حتى في الأصول، وهي: "الأشاعرة"، و"السلف من المحدِّثين"، و"الماتردية"؛ وهي جميعاً تسمَّى بأهل السنَّة والجماعة[٢]، وأنَّ الإيجي نفسه يعتبر "الأشاعرة" فرقة منحرفة في موطن آخر من "المواقف"، بل في الصفحة السابقة فقط.

ثانياً - ينقل علي آل محسن عن العديد من مصادر الشيعة عبارة تكرَّرت بلفظها في كثير من الكتب، وهي قولهم: "إنَّ كلَّ عالم منصف يرى أنَّ الأدلة القطعية تأخذ بالأعناق إلى اتباع مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام، دون غيره من المذاهب، والأحاديثُ الصحيحةُ دلَّت بأجلى بيانٍ على ما عليه الشيعة الإمامية. ولنا أن نستدل على أحقيَّة مذهب الشيعة الإمامية بعدة أدلَّة" ثم يوردها.

فهو هنا يستثني الفِرَق الأخرى من الشيعة من الفرقة الناجية، ويعتبر جميع من خالف الشيعة الإمامية هالكاً عند الله تعالى، ذلك أنَّ نجاة الشيعة الإمامية ثبت "بالأدلَّة القطعية"، كما ادعى المؤلف.

ثالثاً - يُعَنْون أبو يعقوب الوارجلاني كتابه في علم الكلام بناء على

---

(١) الإيجي: المواقف؛ ص٤٢٩.

(٢) قال السفاريني في (لوامع الأنوار البهية): "أهل السنة والجماعة ثلاث فرق: الأثرية وإمامهم أحمد بن حنبل، والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري، والماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي" ١/ ٧٣. ثم قال في ص٧٦: "قال بعض العلماء: هم يعني الفرقة الناجية أهل الحديث: يعني الأثرية، والأشعرية، والماتريدية. وعقَّب بما حاصله: أنَّ قول النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «إلَّا فرقة واحدة» ينافي التعدد، فالفرقة الناجية هم الأثرية فقط أتباع أحمد بن حنبل، دون الأشعرية والماتريدية..".

محورية افتراق الأمة بـ: (كتاب الدليل لأهل العقول، لباغي السبيل، بنور الدليل، لتحقيق مذهب الحقّ، بالبرهان والصدق)، ويشرع فيه بأحاديث افتراق الأمّة، ثم يحاول مناقشة كلّ الفرق المعروفة آنذاك، ويبيّن زيغها وضلالها، معتبراً أنَّ الحقَّ في علم الكلام في واحد ومع واحد، ولم يغفل حتى فرقة النكّار، التي انشقّت عن الإباضية، فاجتهد في بيان ضلالها، وانتهى أخيراً إلى أنَّ "أهل الدعوة والاستقامة" أي الإباضية هم "الفرقة الناجية" دون غيرهم... وكذلك فعلَ "ابن أبي نبهان" في كتابه (تنوير العقول في علم قواعد الأصول)... وغيرهما كثير.

فهذا شأن كلّ فرقة من الفرق الإسلامية، وهذه الأمثلة الثلاثة عنوانٌ لغيرها؛ والعجيب أنَّ كلَّ واحدة من الفرق تدَّعي أنَّ ما معها من الأدلَّة قطعيٌّ، لا جدال فيه، وأنَّ ما جاء به غيرها من الأدلَّة واهٍ وضعيف.

وقد يشذُّ بعضُ العلماء، من بعض الفِرَق الإسلامية، لكنَّهم لا يشكِّلون قاعدةَ المذهب، ولا التوجُّه الرسمي له.

لكن، بغضِّ النظر عن هذه المسألة، وعن مناقشتها كلامياً، فإننا نسجِّل الآتي:

١- أنَّ الحديث المعتمد لم يبلغ درجة التواتر بلفظه؛ فالروايات مختلفة جداً، بل إنَّ أغلبها موضوع، وبخاصَّة بعضُ الزيادات التي تشير إلى فرقة معيَّنة على أنَّها محقَّة، أو إلى فرقة أخرى على أنها في ضلال، ويجتهد كلُّ طرف في تصيُّد هذه الزيادات، والاستشهاد بها، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

٢- أنَّ الحديث، على افتراض كونه قطعيّاً في ثبوته، أي حديثاً صحيحاً؛ فإنَّه يقيناً غير قطعيٍّ في دلالته؛ وإلَّا لَما كان كلُّ هذا الاختلاف بين العلماء من مختلف المذاهب... بل إنَّ لكلِّ عالمٍ ولكلِّ فرقة دلالات غير التي ذهب إليها مخالفوهم، والاستشهاد عليها لا يكون من مصادر موثوقة

غالباً، بل من أحاديث أغلبها موضوع أو ضعيف، أو من روايات واهية مبثوثة في مصادر التراث الإسلامي.

٣- أنَّ بين الفِرَق تداخلاً كبيراً؛ فبعضها محتواة في بعض، وبعضها متقاطع في مسائل معيَّنة مع البعض الآخر، ولا توجد فرقةٌ واحدةٌ تستقلُّ عن الفِرَق الأخرى في العقائد استقلالاً تامّاً؛ مِن هنا جاء التكلُّف في البحث عن "أصول الخلاف" عوض البحث عن "أصول الاتفاق"(١). فالإباضية والأشاعرة مثلاً يقولان بالكسب خلافاً للمعتزلة، والإباضية والمعتزلة يختلفان عن الأشاعرة في اعتقاد رؤية الباري... وهكذا.

٤- أنَّ الكثير من مسائل "تاريخية"، أو "فرعية"، أُدرِجت ضمن الجدال في البحث عن الفرقة الناجية، فلم تكن من قبيل الاعتقاد في شيء، إلَّا أنَّها للأسف أُدرجت ضمنه، ومنها على سبيل المثال: "القول في الصحابة"، "الرأي في أحداث صفِّين وما بعدها"... إلخ. في حين أنَّ القرآن الكريم صريح وواضح في هذا الشأن: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٤١]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٧/١٥]... وللأسف جُرَّ بعض المسلمين في هذا الانحراف، فراحوا يكفِّرون بعض الصحابة صراحةً، ويستحلُّون دماء بعضهم بعضاً دون تردُّد... في حين أنَّ الأحداث التاريخية لم تكتسب القطعيَّة، لا في الثبوت ولا في الدلالة... فهو إذن لا يصحُّ أن يستدلَّ به على عقيدة، مهما ادَّعى أصحابها.

٥- أنَّ أسماء تلك الفِرَق ومواصفاتها، وأصولها وفروعها، ليست ثابتة، ولا محدَّدة، فتجد عالماً في فرقة يختلف مع علماء آخرين في مسائل، قد تكون من الأصول في اعتقاد البعض الآخر. مثل اختلاف العلماء الإباضية في القرآن الكريم: هل هو مخلوق؟ واختلاف الكثير من أصحاب المذاهب

(١) انظر: وينتن، مصطفى: شرح تبغورين للقطب، دراسة وتحقيق؛ مخطوط.

الأخرى فيما بينهم، كاختلاف الأشاعرة في "الإيمان هل يدخل ضمنه العمل"، وفي "الشفاعة"... وغير ذلك.

٦- أنَّ هذا الجدلَ الكلاميَّ، ورَّث المسلمين جدالاً عقيماً، لم يُفِد الأمَّة، ولم يقوِّها على عدوِّها الحقيق: "الكفار، والمشركين، واليهود، والمنافقون، والمفسدون..."، ممن تسلَّط عليهم، وجثم على رقابهم قروناً، وشتَّت شملهم، وأذهب ريحهم... حتى بلغ الأمر اليوم بالبعض للوقوف إلى جوارِ الكفَّار في محاربة إخوانه المسلمين، وسفك دماء المسلمين ممن يشهد أن "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، تحت عنوان "الدين"، مع أنَّ حرمة دم المسلم مما ثبت في العقيدة، ومن الأصول التي جاء بها القرآن الكريم، والسنَّة الصَّحيحة.

٧- أنَّ هذا الجدال العقيم لم يقوِّ عقيدة الناس، بل أورثهم جفاء، وأورث عقيدتهم جفافاً؛ فالواحد منهم يقرأ العشرات من مصادر علم الكلام، من مختلف المذاهب، فلا يزداد إلَّا حنقاً على الفِرَق المخالِفة، وتعصُّباً لفرقته ومذهبه، ولا يشعُّ ذلك في قلبه خضوعاً لله تعالى، ولا إيماناً راسخاً بما هو من "روح الإيمان"، ومن "أصول الإيمان"؛ مثل: الإيمان بالله تعالى حقَّ الإيمان، وبالرسل والأنبياء؛ بما يُلين قلبه ويبعثه للعمل الصالح... وغير ذلك مما جاء به القرآن الكريم.

٨- مِن أخطر ما مُني به هذا الجدال ما يمكن تسميته بالانتقائية أو التصيُّد، فكلُّ طرف يجتهد في البحث عن "عثراتٍ"، أو "حماقاتٍ"، أو "تجاوزاتٍ"، أو حتى "انحرافاتٍ" في تاريخ مخالفه، فيسوقها في معرض التدليل على ضلال ذلك المخالف، ويعمِّمها، ثم يجعلها من عناوين الصراع، ولا يعتبرها انحرافاً "عن" تلك الفرقة المخالفة، بل انحرافاً "لـ" تلك الفرقة؛ أمَّا ما كان عكس ذلك، من قول عالم بقولٍ خلافاً لمذهبه، فيُساق دليلاً على صدقه، وعلى ضلال ذلك المذهب، ويقوِّي من شأن هذا الرأي لهذا العالم في هذا السياق، ثم يعتبر "علَّامة"، و"محقِّقاً"... لأنَّه وافق المجادل في رأيه... وما هذا التصرف إلَّا للعصبية في اعتبار الفرقة الناجية.

٩- هذا المنحى المنهجيّ وقف حجر عثرة في سبيل تجميع "الصادقين"، و"المتقين"، و"العلماء"، و"العاملين" من كلِّ مذهب، في صعيدٍ واحدٍ، وتوحيد صفِّهم، ولَمِّ شملهم، وتكوين قوَّة للمسلمين من هذا الاجتماع، بلا اعتبار للمذهبية، مع احترامها، وقبولها بلا تعصُّب... فما مِن شكٍّ أنَّ في الشيعة وفي الإباضية وفي أهل السنَّة والجماعة... اليوم، من يُنتظر منه نصرة الإسلام، ويُعقد عليه الأمل الكبير... وأنَّ في داخل كلِّ فرقة من هذه الفرق منحرفين، وضالّين، ومضلّين... ممن لا يُرجى نفعهم، ولا يُنتظر منهم الخير للإسلام، ولا النصرة للأمَّة.

مِن هنا نخلص إلى أنَّ علم الكلام، بالمنهج الذي طرح به، عبر التاريخِ الإسلاميِّ، كان من أسباب وهنِ الأمَّة واختلافِها وشقاقِها، ومِن أبرز الدوافع للتكفير والتضليل والتبديع، وأنَّنا اليوم مُلزمُون بالوقوف صراحة، والإعلان عن القطيعة بيننا وبينه، فالعقيدة لا تؤسَّس على "افتراقِ الأمَّة"، بل على "وحدةِ الأمَّة"، ودليلُها لا يتسرَّب إليه شكٌّ ولا يدركه ظنٌّ، بل ينبغي أن يكون "قطعيّاً في ثبوته، قطعيّاً في دلالته"، وما عدا ذلك فهو من فضول العلم، ومما يجوز فيه الاختلاف، وليس محلَّ تكفير ولا تضليل.

فمن اختلف مع سائر الأمَّة في معتقَد خالف به "آية قرآنية" قطعية الثبوت والدلالة، كان خارجاً عن الدين، مثل أن يقول بصفة من صفات النقص عن الحقِّ عزَّ وجلَّ؛ أمَّا ما استتبع ذلك من تفريعات وتفسيرات وتأويلات، مثل: هل صفاته تعالى هي عين ذاته، أم هي مباينة لعين ذاته؟ والأحكام المترتبة من التعطيل أو القول بتعدُّد القدامى، فهي من قبيل "الإلزام"؛ ذلك أنَّ كلَّ فرقة اختارت الرأي الذي ترى فيه تنزيهاً لله تعالى أكثر من غيره... فقد تكون مُصيبة أو مُخطئة، ولا يترتب على هذا أيُّ حكمٍ عقديٍّ، من تكفير أو تضليل.

وقل مثل ذلك، في جميع "أصول الاختلاف" الستَّة، أو التسعة، أو غيرها، فإنها ليست مِن "روح الإيمان" ولا من "أصله"، ولسنا اليوم

متعبّدين باعتقادها بهذا المنهجِ الكلاميّ، مهما ادَّعى المدَّعون، ومهما انتقد المنتقِدون...

ثم إنَّ أيَّ مسألة لم يرد فيها نصٌّ بموضوعها ومنهجها، لا نعتبرها من "أصول الإيمان"، ولا من "أصول الدين"، فإذا لم ترد مسألة رؤية الباري سبحانه - بنفس المنهج الكلاميّ المعهود اليوم لدى المذاهب - في القرآن الكريم، فلأنها - بنفس المنهج - ليست من أصول العقيدة، ولا يمكن اعتبارها كذلك.

ثم، إذا اختلف الصحابة - رضي الله عنهم - في مسألة من الأصول، فهي من قبيل "علم الخلاف"، وليست من قبيل "علم الأصول"، ذلك أنَّ اختلافهم، وهم الذين عاينوا نزول الوحي، واختلافهم وهم المبرزون في القرآن الكريم وسنَّة المصطفى، دليل على كون ما اختلفوا فيه يجوز فيه الاختلاف، فليس لنا أن نضيِّق واسعاً، أو نحمِّل الناس ما لم يحمِّلهم الله تعالى به.

فعلينا اليوم أن نعود إلى صفاء الدين، وإلى روح الإيمان، بما جاء به القرآن الكريم والسنَّة الصحيحة، حتى نُخرج أمَّتنا من دائرة الجهل، والتبعية، والهوان، والذُّل، والضعف... إلى فسحة العلم، والتمكين، والعزَّة، والقوَّة...

وعلينا أن نبحث عن "أصول الوفاق" لا عن "أصول الشقاق"، ولا ريب أنَّ أغلب الدين مما اتفق فيه المسلمون، فلا أحد يشكُّ في عظمة الله تعالى، أو في الجنَّة والنار، أو في صدق الأنبياء... مما ثبت في القرآن الكريم، بالصفة التي ثبت بها... أمَّا في التفريع، والتفسير، والجواب عن بعض الافتراضات، فذلك ما لم يرِد بهذا المنهج في الكتاب العزيز، فهو إذن ليس من "روح الإيمان"، ولا مما كلِّفنا به، والحمد لله.

ترسيخ وحدة الأمة
الدرس العقديُّ نموذجاً

نزل الوحي على سيدنا محمد ﷺ معلِّماً إياه ما يُسعد الإنسان، فاستطاع - عليه السلام، بإذن الله تعالى - أن يُدخل الأمَّة التي لم يكن لها ذِكر في العالمين ضمن الأُمم التي وصفها بأنها "أحسن الأمم" و"خيرها"، وتمكَّن عليه السلام أن يرفع عن الذين آمنوا به الجهلَ والجهالة؛ وأعظم مكسب أنعم الله به على الإنسان في ظلِّ الإسلام؛ وحدةُ المسلمين، واجتماعُ كلمتهم، فقد جعلَها أعظم مقصدٍ شرعيٍّ، ومكَّن الأتباع أن يسيروا على هدَى السلف، بما يتعلمون من أصول دينهم التي كانت سبب هذه الوحدة.

وتُعتبر منظومة العلوم الشرعية أحسنَ وسيلة للحفاظ على هذا المكسب للمسلمين، وكلَّما أصاب الأمَّة فُرقة أو ابتعاد عن صفوف الوَحدة، كان من أهم الأسباب سوءُ فهمهم للأصول الدينية، أو سوء استعمالهم للمضامين الشرعية، مما يستدعي المعالجة من خلال مراجعة أساليب البحث والتدريس ومضامينه.

وهذه المحاولة مقاربة للنظر في أثر تدريس العقيدة الإسلامية، والبحث العقدي ودوره في توثيق عرى الوحدة الإسلامية، والحفاظ عليها، وصيانتها من التصدُّع.

ذلك أنَّ التدريس أمثلُ وسيلةً وأسرعُ أثراً؛ لأنه يتعامل مع ذهنيات الناشئة والشباب المتلقِّي للأفكار، ومع استعداده - غالباً - لتمثُّل المعاني التي يتلقاها عن قناعة.

إلَّا أنَّ هذا المسلكَ التعليميَّ بقدر ما يكون مهمّاً، ليس من اليسير تحقيق الهدف منه، إذا لم تتوفَّر شروطٌ فيمن يتولى مهمة التدريس، وفي المضامين التي تكون موضوع الدرس العقدي.

إنَّ أهميته تظهر أيضاً في خطره عندما لا يتقيد بشروط وضوابط، وعندما يُساء استعماله قصداً أو خطأ؛ ففي كلتا الحالتين تأتي النتائج سلبية وخيمة، يتحول بسببها سوء التعليم - وبخاصة في التعليم الشرعي - هادماً لوحدة الأمة، ومنغِّصاً لتضامن المسلمين، وعائقاً أمام تقديم الشرع تقديماً صحيحاً، ومعوِّقاً عن التقدم التنموي في حياة الأوطان، وعيشها عصرَها، ومواجهتها مختلف ظروف الحياة المتغيرة.

وفي سبيل مقاربة الموضوع علميّاً، وإسهاماً في بناء صرح الوحدة، نحاول دراسته من خلال الآتي:

أهمية البحث العقدي ودوره في توحيد الأمة:

تظهر أهمية البحث العقديِّ من خلال مكانة العقيدة في الدين، من حيث كونها تتضمن الإيمان؛ تصديقاً وقولاً وعملاً؛ وتتكون من التصورات الأساسية الضرورية التي تصنع شخصية المؤمن وموقفه من الوجود بكلِّ أبعاده، وتشكل في نفسه العلاقات التي تربط الإنسان بالعالم المتعدِّد المظاهر، ابتداءً من علاقته بربِّه وخالقه ورازقه، ومالكِ أمره، ومَن إليه مصيره، ثم علاقة الإنسان بنفسه باعتباره لا يستطيع أن ينفع نفسه وهو لا يعرفها، والله تعالى أعلم به من نفسه، فهو يعلِّمه كيف يتصرف فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ٥٠/١٦]، ثم علاقة هذا الإنسان مع الوجودِ البشريِّ في دوائر متدرجة من أقرب الناس إليه نسباً وبلداً، ثم الأبعد فالأبعد، حتى يسع كلَّ العالمين.

وهكذا تستوعب العقيدة أشكالاً أخرى من علاقات الإنسان بغيره من المخلوقات، منها ما يراه ويتعامَل معه، من كونٍ مرئي مشاهَد نباتي أو حيواني، أو جمادي وغيره من مظاهر الحياة، أو من وجودٍ غيبي لكن يشعر بأثره وتأثره به.

وبناء على هذه التصورات تبني العقيدة في الإنسان السلوكَ الذي يرتضيه ربُّ الإنسان، وتوجُّهه نحو ما يكون فيه صلاح أمره، وأمر من يوجد بينهم من العوالم المذكورة.

ومِن جانب آخر، فالعقيدة أساس التشريع ومرجعيته، والخلفية التي تسند كلَّ جوانب الفكر والمواقف التي تصدر عن المؤمنين بكل فئاتهم ومستوياتهم؛ وهذا انطلاقاً من قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات»، في الحديث الذي قيل عنه: إنه أحد أصول الإسلام[1]؛ إذ نبه الرسول الكريم بهذا الحديث الشريف إلى أنَّ كلَّ عمل بالضرورة يستند إلى تصوُّر وعقيدة تجيب عن أسئلة الغايات والأهداف، والدوافع، والمقاصد في أيِّ سلوكٍ بشريٍّ.

هذه الأهمية تجعل العقيدة حارساً أميناً قويّاً وذاتيّاً للشخصية الإسلاميَّة؛ تعصم المسلم من الأخطار المحدِقة به، التي يعمل عدوُّ آدم وبنيه على إيقاع بني الإنسان فيها. ومن أخطرها داء الفُرقة والخلاف المفضي إلى النزاع والفشل والوهن.

وهذا ما يفرض ضرورةَ تدارس العقيدة وتدريسها تدريساً يحقِّق مقاصدها الكبرى والغايات المرجوَّة منها، كما أوحى بها الله تعالى، وأهمها وأعظمها توحيد الخلق في ظلال توحيد الخالق، بعد تحقيق العبودية لله تعالى، وإيجاد لحمة بين المؤمنين، وجعلهم صفاً واحداً، كما وصفهم الله تعالى في قوله:

---

(١) ابن رجب الحنبلي عبد الرحمن بن شهاب الدين، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق وتعليق إبراهيم ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٣١.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٠]، وأحبَّهم صفاً واحداً في مواجهة الشدائد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٦١/٤].

فكان لزاماً أن يقوم البحثُ العلميُّ بدراسة مناهج عرض العقيدة، وسبل تبيين مزاياها التي تحبِّبها إلى الناس؛ حتى تحقَّق فيهم ما يُراد من الإنسان ليكون إنساناً. فهي "الأساس الأول لبقية الأسس في الدين الإسلامي"(١).

وتتجلى أهمية البحث العقدي في توحيد الأمة من خلال أسباب ومقومات متعددة نشير إلى بعض منها(٢):

١- وحدة المصدر وإلهيته:

فلم يكن كافياً أن تكون العقيدة بين المسلمين وحيدة المصدر، بل كانت من الله تعالى وحده لا شريك له في ذلك، فهو الذي ارتضى الإسلام للمسلمين، وهو الذي تولى الوحي بمضمونه إلى الرسول عليه السلام، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩].

وقال عز وجلَّ في وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٣٢].

وأغلق الباب والمجال أمام كلِّ ادِّعاء واختيار خارج إطار الوحي، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٥].

وحفظ الله تعالى العقيدة الإسلامية من كلِّ تحريف أو تغيير، وكتب ذلك وأكَّده، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٩]،

---

(١) عادلة علي ناجي السعدون، مباحث في طرائق تدريس التربة الإسلامية وأساليبها وتقويمها، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، العدد ٢٠٣، سنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص ١١٢٠.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه، ص ١١١٤ - ١١١٦.

ومن الانحراف في المنهج أن نفصل بين حفظ الله تعالى للعقيدة، وحفظه للقرآن الكريم. فنؤمن بأنه تعالى حفظ القرآن ونشكّ أنه سبحانه لم يحفظ أصول الإيمان.

ومن هنا استطاع المسلمون أن يحصِنوا دينهم من كلّ دخيل، وأن يتفطّنوا إلى كلّ محاولة اختراق، ما دام النصُّ المصدريُّ محفوظاً به، لا يدع حيّزاً للشك، ولا يترك مجالاً للريب.

ومن شأن هذه الميزة أن تمكّن العقيدة مِن تقريب وُجهات النظر، وتقلّل من مساحة الاختلاف، أو توجِّهه على الأقلّ، وتنزله المنزلة الصحيحة التي لا تتيح فرصة لمن يريد أن يتّخذها سبباً لنشر الفُرقة والنزاع بين المسلمين.

وتبرز أهمية هذه المصدرية وعلاقتها بوحدة الأمّة، في أنها صادرة من خارج الإنسان وفوق الحدود البشرية، فالله أعلم بحقيقة التركيبة البشرية، وميولها ونوازعها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ٥٠/١٦].

فاستقلال المصدرية عن البشرية أنتج عدمَ التمييز بين الناس، وإيصالهم إلى قولٍ جامعٍ بينهم، يمكنهم أن يجتمعوا عليه، ولا يبعُد أن يتّحدوا ولو كان فيهم اختلاف في وجهات النظر؛ لأنهم سيجدون دوماً منطقة وسطاً فيها يلتقون وإليها يرجعون، والله تعالى يمنُّ على المسلمين بهذه الوسطية التي لا يمكن بحال أن تأتي من غير خالق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣]، وسطيةً بوّأت الأمّة مكانتها بين العالمين.

٢ - شمولية تصوُّر الوجود:

تبني العقيدة تصوُّراً شاملاً عن الوجود كامِلاً غير منقوص، يتضمَّن أجزاء الوجود بالكون الفسيح، والإنسان بمكوناته الشاملة للجانب الروحيّ

والجسديّ، والحياة المحيطة بالإنسان بكلّ مظاهرها الحيوانية والنباتية وغيرها. فلا تضع الإنسان خارج العالم، أو على هامش الوجود، بل له علاقة بكلّ ما يحيط به، يرتبط بما حوله على المنهج الذي وضعه الله تعالى له، حتى لا يضيع ولا يضيِّع، ويبني وينتفع، ويصلح ولا يفسد، وقد قال الله تعالى مربّياً الإنسان حتى يمنع ضرره عن غيره: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٦].

وجعل الله تعالى كلَّ حياة الإنسان تدور في فلكِ الخضوع لله تعالى، كما تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٢-١٦٣].

٣ – توحيد الخلق في اتجاه الخالق، وتعبيدهم لإله واحد:

العبادةُ أثرٌ من الاعتقاد وقد بُنيت على أُسسٍ مُتعددة، ومقاصد من أهمها:

توحيدُ المسلمين في عبادتهم لله تعالى، من خلال مظاهر أداء الشعائر، وأشكالها، والترغيب في الاجتماع، والتوجيه نحو الشعور بالتكامل والوحدة بين أفراد المجتمع، حتى غدت العبادة والتعبُّد تربية اجتماعية؛ لما فيها من مشاركة، وإزالة الحواجز بين المتعبِّدين بما أنهم يعبدون إلهاً واحداً، ويصلُّون صفّاً واحداً، ويبذل بعضهم ما أوتي من قدرات وإمكانات على اختلافها، في خدمة الآخرين، مِن أجل نيل رضا ربٍّ واحدٍ أحدٍ هو الله تعالى، وتنمِّي بذلك أسباب التناصح والتعاون والشعور بالعدل والمساواة ونبذ الفُرقة، والميل إلى جمع الكلمة ورصِّ الصفوف[1].

ويظهر هذا في تشفيع العبادات والتوجيهات الإسلامية، والتعقيب المتعدد المتنوع في القرآن الكريم، تعقيبات وتعليلات تبين في الغالب أنها

(١) عادلة ناجي، مرجع سابق، ص ١١٢١.

إنما وُضعت وشُرعت وأُمِر بها من أجل غايات ومقاصد، ولم تكن تُراد لذاتها؛ بل لما تُوصل إليه من حسن اجتماع البشر، وتعاونهم، وتكامل أدوارهم في الحياة، فلا نكاد نجد تشريع عبادةٍ أو أمرٍ إلا ويتَّضح أن فيه صلاح أمر المؤمنين جماعةً، وفيه وحدتهم وجمع شملهم، وحتى على مستوى اللفظ كان النص يأتي مخاطِباً الجماعة دون الفرد في الغالب، ومن ذلك على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٤].

وقوله عزَّ من قائل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٦].

وقوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٣].

ويحرص الإسلام على هذه القيم لتظهر على المستوى التطبيقي والمظهري؛ لكي تعزِّز الشعورَ الداخليَّ وتثبته على مستوى الأفراد؛ فالدلائل على هذا كثيرة؛ منها هذا النموذج الذي سجَّله القرآن الكريم للذين أرادوا أن يثلموا صفَّ المسلمين في صورة اتخاذ مسجد، لكنه لم يرَد به وجه الله تعالى ولا منفعة عباده، فسماه القرآن الكريم "مسجد الضرار"، ونهى عن الصلاة فيه؛ لأنه سيكون أكبر معوَلِ هدم وثلم في جسد الأمَّة، وقال تعالى في شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٧-١٠٨]، وورد بشأنه عن الرسول عليه السلام أنه أمر به فهُدم بناؤه قبل أن يَهدم بنيان صف المسلمين.

ويشهد لتوحيد العباد على توحيد الله تعالى نهي الرسول ﷺ وموقفه من الذين يتركون الجماعة، كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلاً فيؤمَّ الناس، ثم أُخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلمُ أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»**[1]. ويظهر فيه تعظيم أمرِ الجماعة وأنَّ العبادة لوحدها، كانت تكفي لولا أنَّ الشرع قد أمر بها جماعة من أجل جمع كلمة الأمَّة، وتوحيد صفِّها.

٤ - وحدة الأحكام التي تسيِّر حياة المسلمين:

جاءت الشريعة بأحكام تسيِّر حياة المسلمين على اختلاف فئاتهم وأصولهم، غير مفرِّقة بين أحد وآخر، مهما كان سبب الاختلاف، ونهت عن التمييز في التعامل بين الناس، وأمرت بالعدل بينهم، فهم سواسية لا يتفاضلون ولا يتفاصلون، ولا سبب للتفضيل غير التقوى؛ التي لا يمكن أن يعلم حقيقة وجودها في الشخص إلا الله تعالى، وقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]، كما جاء في الحديث الشريف، عن جابر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«ألا لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلَّا بالتقوى، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم»**.

---

(١) رواه البخاري، في أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم ٦١٨، وقال في شرح الزرقاني على الموطأ: «أو مرماتين بكسر الميم وقد تفتح تثنية مرماة قال الخليل: هي ما بين ظلفي الشاة من اللحم حكاه أبو عبيد، وقال ما أدري ما وجهه»، الزرقاني محمد بن عبد الباقي بن يوسف، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، الناشر دار الكتب العلمية سنة النشر ١٤١١هـ، بيروت، ١/ ٣٧٩.

وهذه القيمة القاضية بتساوي العباد أمام ربهم ترفع كلَّ سبب للتفرقة أو التمييز، بأيِّ نوع من أنواع التمييز، فهي تسوِّي بدايةً بين الأصل في الوجود والخلق؛ إذ خلق الله تعالى الذكر والأنثى سواسيةً أمام ربهم، ولم يترك مجالاً للتمييز، وبيَّن أنَّ اختلاف الأدوار لا يعني تفضيل واحدٍ على الآخر إلا بقدر عمله في إنجاز دوره، وقربه إلى ربِّه بالإنجاز الذي هو عين الطاعة المطلوبة منه، وكان هذا من دلائل عظمة الله تعالى، في دقة التقدير، فهو القائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢/٢٥]؛ وقضى أنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧/١٦].

ومن جهة أخرى يتساوى الناس جميعاً ولا مجال للتفرقة بينهم، وهي مساواة عادلة لا تظلم أحداً؛ لأنها لم تكن على المستوى الكميِّ والعدديِّ، بل على المستوى الكيفيِّ والنوعيِّ؛ أي المستوى الذي يتعلق بالإيمان والدافع الروحي، والخلفيات والنيات التي لا يمكن أن يعلَمها إلا الله تعالى، من دون الخلق جميعاً؛ لذا لم يكن يتاح في الشرع أن يشتغل الناس بتصنيف المكلَّفين حسب تقواهم بأعيانهم، ولم يمتلكوا مفاتيح السعادة الأخروية وبيوت النعيم يقسمونها بينهم؛ لأنهم إن فعلوا فهم لا محالة سيحابي بعضهم بعضاً، وسيختلقون مقاييس تخدم بالضرورة أهواءهم المتقلِّبة، وميولهم المتحيزة، وحينها لا يسلم إلا من رحم الله، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢/٤٣].

مثل هذه القيم العقدية هي التي ترشَّح لبناء وحدة المسلمين، فيجب أن يعمل التدريس ومنظومته على إظهارها والتركيز عليها، والاستثمار فيها من أجل إحلال الوحدة بين المسلمين والمحافظة عليها، وهذا من خلال التركيز على الأصول العقدية الإيمانية.

❁ ❁ ❁

الأصول العقدية المؤسِّسة للوحدة

العقيدة في أصلها التوحيديُّ تصنع وحدة المنتمين إليها، وتفرض جمع شملهم، من خلال وصفهم بالصفِّ الواحد، ومن خلال التشريعات التي يجب عليهم الإيمان بها والعمل بمقتضاها، ومن حيث الجانبُ الشكليُّ المظهريُّ الجماعيُّ أيضاً؛ لأنَّ لها خلفية عقدية تصورية إيمانية؛ فمنها العبادات مثل: الصلاة، والحج، والمعاملات، والعلاقات الأُسرية والجِوارية والسياسية أيضاً..

فهي أصول عقدية في حقيقتها، موحِّدة ودافعة إلى لَمِّ شمل المسلمين على مستويات عديدة، ولا يمكن أن نجتزئ بعضها دون بعض.

وينبغي الإشارة إلى أنَّ اعتبار وجود أصولٍ في العقيدة يسلِم إلى القول بوجود فروع أدنى منها، مما يتطلب ضبط هذا المصطلح، وتحديد دلالته، وما يصدق عليه من قضايا الإيمان.

فقد استُعمل كثيراً وبمعانٍ متعدِّدة، واتُّخذ اسماً لعِلم الكلام، وعنواناً لبعض كتبه، ومع هذا فإنَّ تعريفه أو ضبطه ما زال يحتاج إلى تدقيق.

نجد بعض التعاريف تقصره على مجرَّد المعنى اللغوي، وتجمع فيه أحياناً كلَّ مهمٌ في الدين؛ أو ما يميِّز مبادئ وآراء عقدية خاصَّة بفرقة أو مذهب؛ ولعلَّ الغالب هو هذا المعنى الأخير[1].

---

(١) ينظر: الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات، تحقيق وتقديم إبراهيم

والأصل كما يدلُّ عليه المعنى اللغويُّ هو ما يُبنى عليه غيرُه، والفرع ما نتج عن الأصل؛ وبالنسبة إلى العقيدة تصبح الأصول بهذا التعريف والضبط هي ما ورد به النصُّ، أمَّا ما بعد النصِّ فهو فرع عنه، مبنيٌّ عليه. ويدخل تحت مسمَّى النص هنا كلُّ المبادئ العقدية التي نصَّ عليها الوحيُ، ثم ما فهمه الناس بعد الوحي ينبغي أن يعتبر فرعاً من الفروع العقدية.

وإذا استعرنا من تعاريف الأصول على منطق المدارس الكلامية والمذهبية التي نجدها ترفع من مكانة الأصل، وتجعله ما لا يمكن الاختلاف فيه، أو ما لا يجوز فيه الاختلاف، وكذا ما نتج عن فهم النص، فإننا سنصل باختصار إلى سببٍ قويٍّ ولو نظرياً إلى ما يوحِّد الأمَّة، ويجمعها على كلمة سواء.

ذلك أننا سنقتصر في الحديث عن أصول الدين على الأصول التي ورد ذكرها في النصِّ الشرعي، من جهةٍ، وهي الأصول التي يكفي المكلَّف اعتقادها ليتسمى بالإيمان والإسلام، الأصولُ التي تتيح فهم المقصود من الدين، وتوصل المسلم إلى الإحاطة المطلوبة عن تصوُّره للوجود وللمعاني، التي تشكِّل اعتقاداً ميسوراً غير معقَّد ولا موغل في التجريديات، وهو في النهاية ما سماه القرآن الكريم "البرّ"، وهو كذلك ما آمن به الرسول ﷺ والمؤمنون، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

= الأبياري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ٣٠؛ امحمد بن يوسف اطفيش، شرح أصول الدين، تحقيق مصطفى وينتن، ضمن أطروحة دكتوراه مقدمة في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٦٨.

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

فقد ذكرت الآيات هنا من أصول الإيمان ما لا نجد فيه خلافاً بين المسلمين المعتدِّ بأقوالهم على المشهور بينهم، وما كان من مخالفةٍ فقد اعتبر شذوذاً، ويكفي أنها هي الأصول التي نسب الإيمان بها إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين، فهي التي يمكن أن نسمِّيها أصولاً بحقٍّ، وأن نصطلح على كونها كذلك؛ لأنها توفرت على أهم معنى في الأصل، كونه ينبني عليه غيره، وأنه ما لا خلاف فيه أو ما لا يمكن فيه الخلاف.

فكان ينبغي أن تدرس العقيدة بناء على هذا المستند، وعلى أصول تجمَع المسلمين ولا تفرِّقهم؛ أصولٍ على أساسها يوحَّد تدريس العقيدة وتعليمها للناشئة، والطلبة في مختلف المستويات.

وهذا يثبت أنَّ الأصل من شأنه أن يكون متَّفقاً عليه، بينما الفرع يُختلف فيه، وواضح أنَّ هذا في دائرة الشرع، ويدلُّ على اتفاق الأمَّة على كلمة واحدة، فما اتفقت عليه هو الأصل وما اختلفت فيه هو الفرع.

ثم ينشأ التساؤل عن مصير الأصول الخاصَّة بالمذاهب الإسلامية على اعتبار ضرورة وجودِها، وعدم جدوى تجاهلها أو تجاوزها.

ويكفي في كونها ينبغي أن تكون فروعاً أنها مختلَف فيها، وإن دأبت المدارس الإسلامية على التركيز عليها، والإعلاء من شأنها، فإنما هي محاولات انتصار للرأي، ومحاولات للردود على الآخرين ممن يخالفون المذهب، والحقُّ أنها ينبغي أن يحافظ لها على حقيقتها الخلافية، وهي التي تميِّز المدارس فيما بينها، ولو كانت أصلاً للدين حقيقة كان يجب أن يُتفق عليها، ويكفي الاختلاف سبباً في إنزالها إلى الفروع، وعندما تنزل إلى مرتبة الفروع يصبح العلم بها وتعلُّمها من هذه الزاوية، تعلُّماً وتعليماً للخصوصيات المذهبية.

كما أنه لا يمكن أن يُتنكَّر لهذه الأصول المذهبية، ولا أن تنكَر، ولكن يستدرك عليها أنها غير ممكن أن تكون هي كلُّ الدين، فيصبح الفرع بهذا أصلاً، وتنقلب الموازين، وهنا تُقزَّم العقيدة الإسلامية، ويحجر على دائرة إمكان التفسير وإثرائه بما يتوافق وسعة علم الله تعالى، وعدم إحاطة الإنسان به.

فالأصل هو شهادة التوحيد بجمَلها الثلاث، وما يقطع فيه العذر، وما لا يجوز فيه الخلاف، وما الحقُّ فيه مع واحد، ويصبح ما سواه من الفروع من خصال التوحيد، وما لا يقطع فيه العذر، وما يجوز الخلاف فيه[1].

لذا نجد أنَّنا مضطرُّون إلى القول إنه ينبغي إعادة النظر في هذه الأصول التي فرضها كلُّ مذهب على نفسه، واعتبرها هي أصول الدين. فنصل إلى نتيجة أن المذاهب لمَّا اتخذت لنفسها أصولاً لم تكن ترى إلى جهة الاتفاق في الحقيقة، ولكن كانت ترى إلى الاختلاف، فتميَّزت كلُّ فرقة بما يجعل لها كياناً، ويحقِّق لها تفرُّداً بين غيرها من الفرق، ولهذا فهي في الواقع تدلُّ على مواقف مذهبية في قضايا العقيدة، فلا يكون الواحد من أهل مذهب إلَّا إذا سايره في هذه المواقف، ووافقه فيها، وبهذا أمكن أن تظهر الفِرَق والمذاهب العقدية من خلال تميُّزها عن غيرها بأصولها.

فالصواب والصحيح فيما يبدو أن تسمى أصول الخلاف، أو أصول المذهب، لا أصول الدين؛ لأنَّ أصول الدين من المفروض ألَّا تكون موضع خلاف بين المسلمين، فلا يفرق بين المسلم وغيره إلَّا اختلافه مع الملل الأخرى في أصول إيمانه وأحكام الشريعة التي يلتزم بها.

وعندما نرى بهذه الرؤية يمكن أن نفسِّر اختلاف الأصول من مذهب إلى آخر؛ لكن نلحظ أنه وقع التوسُّع في إطلاق مصطلح الأصول من فرقة إلى

---

(١) امحمد بن يوسف اطفيش، شرح الدعائم، طبعة قديمة ١٣٢٥هـ، د م، ١/١٢٩.

أخرى، فكان الاسم واحداً "أصول الدين"، لكنَّ المضمون والمقصد متباينٌ تبايُناً واسعاً إلى حدِّ التناقض؛ الذي يجعل ما في المذهب الواحد لا يمكن أن يجتمع مع ما في غيره.

ومِن جهة أخرى، إذا كان هذا الاعتبار هو الصحيح، فإنَّ أيَّ مذهب عندما يتخذ لنفسه أصولاً إنما يريد أن يظهر القضايا التي خالفه فيها غيرُه، ولم يتَّفقوا معه، أو لم يتَّفق معهم، وهذا في حدِّ ذاته غير متيسِّر دائماً، فلا نكاد نجد مذهباً يحقق هذا بالمعنى الدقيق، إلَّا على الغالب، فيذكر له بعض المواقف التي اشتهر بتغليبها على غيرها، وإلَّا فلا يمكن أن ينفرد الإباضية أو المعتزلة - مثلاً - بأصلَي "التوحيد" و"العدل" دون غيرهم، ولكن لكلِّ مذهب نظرٌ في جزء من هذين الأصلين، وهذا يثبت أنَّ هذا المصطلح وقع فيه التوسُّع كثيراً مما أنتج عدم انضباطه، إذ يراد به التفرُّد.

والذي ينبغي أن يكون هو الإبقاء على الضابط بأنَّ الأصل هو "ما لا خلاف فيه بين المسلمين"، وبهذا لا تصبح الأصول إلَّا ما جاء صريحاً في القرآن الكريم، والسنَّة الصحيحة التي لا خلاف فيها، وهو ما يكون كفيلاً حقّاً بإرجاع الأمَّة إلى أصولها، وتدعى إلى ما كان يدعو إليه الرسول، عليه السلام، لا إلى ما انتهت إليه تصورات الناس من بعده رغم أهميتها، لكن لا ينبغي أن تكون بديلاً عما جاء به ﷺ.

ومع وجود القرآن الكريم، فإنَّه ينبغي عدم التقديم بين يديه بتحديد هذه الأصول، إلَّا من قبيل تقريب الفهم، فإذا لم تكن هذه الأصول التي يراد لها أن تعبر عن الدين تفسيراً لما جاء به القرآن، فستكون من جملة ما ورثه المسلمون عبر العصور، وما تراكم على تراثهم من مفاهيم وتفاسير، وما عاشوه من قضايا وأحداث، جعلت في الأخير مضمونَ العقيدة وعلم الكلام أحسن حامل لتاريخ المسلمين الفكريِّ، فكلَّما استعظموا مسألة ورأوا أن الخلاف فيها قادحٌ في الدين، رفعوها إلى العقيدة وبوَّؤوها مكانة تكون

فيها من الأصول، أو على الأقل من الفروع العقدية[١]؛ ولا نحسب أنّ المدونات العقدية تختلف في هذا الملمح، فقد تأثرت بالظروف التي عاشها المسلمون، فكانت النتائج متشابهة ومتطابقة غالباً.

وهذا من شأنه أن يعزِّز الدعوة إلى إعادة صياغة هذه الأصول، وتحديدها بما يتوافق مع القرآن الكريم، واستبعاد ما لا يعضده دليل، تخفيفاً على المؤمنين وتيسيراً، وقد قدَّم العلماء عبر الزمان نماذج في هذا، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، ما فعله الشيخ اطفيش امحمد بن يوسف عندما استبعد بعض المسائل من دائرة الأصول، لعدم جدواها، وعدم اتِّصافها بكونها مُجمعاً عليها[٢].

وبهذا يمكن أن يتقدَّم الدرس العقديُّ خطوة في سبيل تحقيق وحدة المسلمين، ولكن لا يكفي التنظير لتجسيد ذلك، بل للواقعِ العمليِّ التدريسيِّ والدراسيِّ دوره الواضح والأكيد في الموضوع؛ فبناءُ مضامين التدريس، وصناعة المؤلفين والمدرسين خطوة أساسية، وركن ركين في هذا المجال.

شروط تحقيق وحدة الأمة من خلال البحث العقدي والدرس العقدي:

ما دامَ النصُّ العقديُّ والأصلُ العقديُّ قد بُنيا على أساسٍ توحيديٍّ؛ فالدرس العقديُّ أيضاً يتبع السبيل ذاتها.

ولكن، ينبغي ضبط مسار البحثِ العقديِّ ومسيرة الدرس، بما يكفل هذه

(١) ينظر: عبد المجيد النجار، إحياء الفكر العقدي في مواجهة التحديات، أو تجديد الفكر العقدي، مجلة مخبر البحث في الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، عدد ٢، سنة ٢٠٠٥، ص٥٥-٥٩.

(٢) اطفيش: مجموع رسائل، مخطوط بمكتبة القطب، بني يزقن رقم ا - ز٦، ص ١٥٣؛ وينتن، آراء الشيخ اطفيّش العقدية، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٣٥- ٤٣٦، ٤٧٤.

الغاية التوحيدية، ويمكن ذلك من خلال ضبط بعض الشروط على مستوى المحتوى والمضمون، ثم على مستوى من يتولى التدريس والتكوين.

١ - على مستوى المحتوى ومضمون المادة التعليمية:

فالدرس العقدي هو حامل الأفكار وناقلها عبر الأجيال، وهو الذي يضمن استمرارها، كما يضمن نوعية النتائج وتحقيق الأهداف المرجوة من التكوين؛ ولذا ينبغي أن يبنى بمنهج، وعلى أسس تحقِّق هذا الهدف الأساسَ وهو توحيد الأمة؛ لأنها إذا لم تتوحَّد في قاعة الدرس، وحلقات التدريس، وفي مرحلة تكوين الذهنيات، فإنه قد تستعصي عملية الإقناع بالوحدة؛ لأنَّ قاعدة الانطلاق لم تكن صحيحة، وفكرة التوحيد لم يؤسَّس لها تأسيساً علمياً ونفسيّاً في المنطلق، بل ربما خلفها توجه الفُرقة والتباعد.

ومن بين ما يجب توفره والتركيز عليه في الدرس العقدي نذكر الآتي:

أولاً - الحفاظ على المصدرية القرآنية والنبوية:

إذ يجب على المضمون التعليميِّ أن يتوخَّى في تسمية الأصول العقدية الأصول التي تسندها نصوص صريحة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلا يتداخل الفهمُ البشريُّ مع نص الوحي، ولا يرفع التفسيرُ الإنسانيُّ إلى درجة النص، ولا يستحدث منه أصلٌ عقديٌّ، ويحتفظ لكلٍّ بمقامه ومكانته من التشريع، فالنص ملزِم، وقاضٍ على التفسير، والجهد البشريُّ يبقى اجتهاداً في التوضيح يُستأنس به، ويساعد على فهم النص؛ ولكن لا يكون مهيمناً عليه.

ثانياً - الفصل بين الأصل العقدي وتفسيره:

وتبعاً للضابط السابق لا يصحُّ أن يصبح النصُّ الإلهي مسجوناً في نتاج التفكير البشريِّ، مع ما بين الطرفين من البون الشاسع، بل عدم صحة

المقارنة أصلاً، فالله تعالى يصف علمه بالسعة التي يستحيل أن يحيط بها أحد مخلوقاته، وقال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٩]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٧].

فلا يعقل أن يُقضى على الأصل العقديِّ بمصدريته العلوية، وطريقه النبويِّ عبر الوحي الإلهيِّ بالاجتهادِ البشريِّ المحدود والمقيَّد بالعقل، بكلِّ ما فيه من خصائص تضعه دون علم الله تعالى، وهو يستمدُّ أساساً من علم الله، ولا يتحرَّك إلا فيما دون علمه تعالى، ومحصور بين آليات عالم الشهادة، وليس له من وسيلة إلى عالم الغيب إلا طريق الوحي، ونافذته، وقد بينت تجربة تفسير القرآن على ضوء نتائج الكشوفات البشرية في عالم الشهادة القريب نسبياً إلى الإنسان، ما يقع أحياناً من إشكالات علمية ومنهجية وشرعية؛ سببها عدم احترام الحدود الفاصلة بين مصادر المعرفة، وعدم ضبط الأصلي من الفرعي منها، والمحدود من اللامحدود، وبين العلم الإلهي الحقِّ الثابت، وبين العلم البشري النظري والمتغير دوماً، والقاصر عن الوصول إلى الحقائق المطلقة.

فمثلاً، إنَّ التوحيد أصلٌ عقديٌّ، وهو بمعناهُ الاصطلاحيُّ في البحثِ العقديِّ أصل، وما تفرع عنه أو اتصل به مما يفهمه العلماء عبر الزمان ينبغي أن يبقى في مرتبة الفرع، ويكون تفسيراً بشرياً، وما دام كذلك فلا يمكن بحال أن يطلب فيه الاتفاق على رأي، ولا أن يرفض فيه الاختلاف، ويقطع فيه عذر من رأى رأياً مخالفاً، إذا كان مستنداً إلى دليل، أو أثارةٍ من علم، ومع ذلك لا يكون له من الدرجة وقوة الإلزام ما يكون للنص الوارد وحياً أصلاً وابتداءً، سواء وحياً قرآنياً أو حديثاً نبوياً صحيحاً.

ثالثاً - القراءة التوحيدية للأصول العقدية:

ينبغي أن تقرأ الأصول الإيمانية العقدية دوماً بما يمكّن من توحيد المسلمين، ومن ذلك منهج العلماء الذين ينحون منحى تقليص الخلاف قدر المستطاع، وتقريبه إلى الخلاف اللفظي الذي ينتهي إلى اعتبار الخلاف مجرَّد اختلاف وجهات النظر وزواياه، وهذا يفضي إلى أنَّ الموقف والرأي متفق حوله، لولا أن صيغة الإفصاح عنه ستختلف بالضرورة حسب درجة الذاتية في اختيار لغة التعبير عنه، وأسلوبها، ودلالاتها، وهكذا ستتقلص دائرة الخلاف، وتنحصر عن الاختلاف المعنوي والمضموني لتتسع إلى دائرة الاستعمال الاصطلاحيّ واللغويّ، والدلالات اللفظية التي يهون فيها الأمر، وتضيق معه شقة الافتراق، فأصل التوحيد في العقيدة بما فيه من مباحث الصفات والأسماء، وعلاقتها بذاته تعالى، وقضية رؤية الله تعالى بين الإثبات والنفي، كلُّها يمكن أن تنتهي بقراءة توحيدية تتوخى توحيد الأمة وجمع كلمتها، ما دام الجميع متَّفقون على وحدانية الله تعالى، ومخالفته لمخلوقاته، بما لا يدع مجالاً للشك بأنَّ رأياً من الآراء، كان يريد من خلال تفسيره وشرحه، أن يركز مفهومَ التوحيد وتفردَه تعالى عن المخلوقات، في المعاني التي يمكن أن ترِد على الفكر البشري.

وهذا من شأنه أن يخفِّف من حدة الأوصاف والألقاب التي يتقاسمها المؤلفون، ويتراشق بها المتناظرون في المسائل العقدية، وبموجبها يحكمون بالصحة والصواب، ويَصِمُ بعضُهم بعضاً بالابتعاد عن دائرة الشرع، أو الخروج منها.

رابعاً - اعتبار الاختلاف في التفسير العقدي ثراء في الفكر الإسلامي:

باعتباره اجتهاداً بشريّاً يحتمل أوجهاً من الصحة، ويمكن الاستفادة منها في العاجل أو الآجل، فبعض المواقف يمكن اعتبارها أنها جاءت في غير وقتها، تأخُّراً أو سبقاً، يُحتفظ للمتأخر منها بمكانته حسب الظروف والسياق

الذي أنتجت فيه، ويُنتظر للأخرى وقتها التي يصبح من المجدي الأخذ بها. وفي النهاية إنها اجتهادات البشر لا تعدم وجهاً من الصحة، أو جهداً من التصحيح.

٢- على مستوى من يتولى تدريس العقيدة

يعوَّل في نجاح العملية التربوية على العالم والأستاذ والمدرس، وإذا كانت العقيدة محور التدريس فإنَّ المسؤولية تتأكد أكثر، فهو العامل الأساس، كما يقول علماء التربية، هو "عماد العملية التربوية، وهو من العناصر المهمَّة التي تزيد من كفاية وفاعلية أي نظام تربوي؛ لما يؤديه من دور فاعل في تحقيق الأهداف المرسومة للأنظمة التربوية"[(١)].

واهتمام التربويين بالمربي قديم؛ لما له من دور فعَّال في ترسيخ المعلومة وتكوين الطالب؛ والأستاذُ الذي يتولى تدريس العقيدة أولى بهذا الاهتمام، وهو في عمله خليفة للرسول ﷺ ولسائر الرسل، لأنهم جاؤوا بعقيدة واحدة، كما بينه الله تعالى وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥/٢١]، ولذا توضع للتدريس حسب المواد طرقه ووسائله التي تمكّن من تحقيق الأهداف، وإيصال القيم والأفكار إلى الأجيال، وللعقيدة وتدريسها مكانتُها الأولى في هذا المجال، فيولَى للمدرس أهمية خاصة تبعاً لأهمية ما يقدمه لطلبته، وفي التدريس الجامعي المتخصص ترتفع درجة الأهمية والخطورة؛ لأن الأستاذ يصبح مرجعاً، وعلى يده يتكون من يتولون تدريس أبناء الأمة، فالنجاح النهائي يبدأ من هذه المرحلة، وكذلك العكس، مما يوجِب الاهتمام بالمدرس حتى يعمل بما يُنتج ويوجه أبناء الأمَّة إلى ما يصلح من شأنها ويعزز وحدتها.

ومن أهم الخصال والصفات التي ينبغي توفُّرها في أعضاء هيئة

(١) ينظر: عادلة علي ناجي، مرجع سابق، ص١١١٢.

التدريس، استئناساً بما توفُّره بعض بحوث التربية، والتجربة التي عاشتها الجامعات الإسلامية بعامَّة، وفي أقسام تخصص العقيدة ومقارنة الأديان بخاصَّة، يمكن تسجيل ما يأتي:

أولاً - شخصية الأستاذ:

قوة شخصية الأستاذ المدرِّس، وحكمته واتِّزانه، ووعيه بمجتمعه، والظروف التي يعيش فيها المجتمع، وما يعتريه من إشكالات فكرية وقضايا حياتية، حتى يتمكن من مخاطبة الناس بما يفهمون، ويكونَ قريباً منهم، ويكسب جانبهم، فهو بتدريسه يمارس جانباً مهمّاً من الدعوة وتكوين الدعاة. وهذا تأسّياً بالرسول - عليه السلام - إذ وصفه الله تعالى وبيّن كيف تتجاذب نحوه القلوب؛ فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩]، وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

ثانياً - الوعي بالواقع العقدي:

إذ يُفترض في المدرس الجامعي في هذا التخصُّص أن يعيش بإخلاص وصدق هاجس وحدة الأمَّة، ويعمل على تقريبه إلى أذهان أبناء الأمَّة.

فإنه إذا جهل الواقع أو تجاهله لا يمكنه العمل على إصلاحه، بل ربما أصبح أداةً طيعة لمن يريد للأمة فُرقتها. فالوعي بالواقع شرط أساس في نجاح تبليغ الأفكار، من خلال إدراك المنهج الأسلم في الوصول إلى النتائج بأقل التكاليف، كما كان هذا دأب الرسل، عليهم السلام، وسيدنا محمد ﷺ الذي صبر على قومه كل مدة تبليغ الرسالة، ليرسخ في القوم قيم هذا الدين الحنيف.

ثالثاً - نبذ التحيُّز والتعصُّب:

ينبغي أن يترك المدرس التحيُّز إلى تيار دون آخر في التدريس الجامعي؛ الذي يفترض فيه البحثُ العلميُّ المعتمد على مختلف المناهج البحثية، وبخاصَّة تنمية القدرة على التحليل والمقارنة بين المواقف المتباينة والمختلفة، كما يُطلب فيه خُلق التعامل الرزين والرصين مع القضايا المختلِفة والمختلَف فيها، وأن يتكوَّن الطالب على ترك التقليد والابتعاد عن الاعتماد على الترديد والتلقين، والتلقي السلبي، وحشو المعلومات.

وهذه الملكات كلها لا يمكن أن تنمو وتستثمر في محيط التحيُّز والانحياز، الذي من شأنه أن يغلق المجال أمام التفكيرِ الحرِّ، وإنما يكون التحيُّز الإيجابي بتعليم الطالب أن يكتسب ملكة بناء شخصيته، والإفصاح عن مواقفه، والتدريب على حسن عرض رأيه، وبناء التصور الصحيح عنه، ثم الإجابة عن الإشكالات المستعصية، والاعتراضات المختلفة الممكنة على رأيه، وكذا التدرب على الجواب على آراء الآخرين بمنهج علمي وخلق عال.

والمدرِّس مسؤول عن هذا التكوين لدى الطالب، وعن مراعاتِه، ورعايته فيه، فهو داعية بالضرورة، فإذا انحرف في مساره انحرفت الأمَّة معه وأخطأت الطريق إلى وحدتها، فيصبح الدرس العقدي دعوة خاصة إلى الاتجاه الذي ينحاز إليه الأستاذ المدرِّس، وإلى التيار الفكري المنتمي إليه، وإلى الحزب الموالي له[1].

ويتأكد طلب نبذ التحيُّز لدى المدرس، وبخاصة في درس العقيدة، لما له من أثر مباشر على الحياة الواقعية اليوميَّة للأمة، ولكون الجامعات ومعاهد التكوين لم تعُد تضم في فصولها الدراسية وأقسامها فئات متماثلة؛ من حيث

---

(١) ينظر: البيانوني محمد أبو الفتح، مدخل إلى علم الدعوة، دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة وأصولها ومناهجها وأساليبها ووسائلها ومشكلاتها، في ضوء النقل والعقل، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٣٥٢.

الانتماء المذهبيُّ والاتجاهات الفكرية، على خلاف المدارس القديمة وحلقات الدرس التي كان بعضها مخصَّصاً لمذاهب معينة على شكل أوقاف عينية.

بينما في ظلِّ الدول الحديثة أصبحت الجامعات من سماتها انفتاحها على ألوان من الاتجاهات الفكرية، مما يجعل تحيُّز هيئة التدريس أثناء أداء مهمتها يؤدي إلى تضييع أهداف التدريس، وزرع أسباب الفرقة، وتوسيع الشقة بين المسلمين، وبالتالي توالي الأخطاء في حقِّ الأمة[(١)].

رابعاً - التزام توثيق المعلومة من مصادرها:

فالمطلوب من الأستاذ أن يتحرَّى استقاء معلوماته، وخاصَّة تلك التي تتعلق بالآراء المذهبية من مصادرها الأساسية، وعدم الاكتفاء بالمراجع الموجِّهة للآراء، والمواقف، هذا الاطلاع الذي يكسب المدرس تصوُّراً سليماً صحيحاً عن حقيقة الآراء، في المسألة الواحدة المختلَف فيها؛ إذ كثيراً ما يؤدي سوء الاطلاع إلى المشاركة في نشر الأخطاء عن أصحاب الآراء، وظلمهم بسبب عدم الاطلاع من مصادر المعلومة الصحيحة. وبالتالي فتح المجال للجدل العقيم، والمواجهات غير المجدية، التي تزرع الأحقاد والضغائن، وتوسِّع الفُرقة بين أبناء الأمة.

خامساً - الالتزام بالقول في حدود العلم:

وهذا عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦/١٧]، وهو ضابط أخلاقيٌّ

---

(١) ينظر: مصطفى وينتن، إشكالية التحيز الداخلي في تدريس العلوم الإسلامية وأثره في التحصين الفكري والعقدي، منشور ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول حول دور العلوم الإسلامية في إرساء الهوية ومواجهة التحديات المعاصرة، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، ٢٠ - ٢١ جمادى الأولى ١٤٣١هـ/ ٠٤/٠٥ ماي ٢٠١٠م، ص٦٠٨-٦٢٠.

يؤكد عليه العلماء المسلمون، فلا يَتكلم الإنسان إلا فيما يعلم، ويقِف ويسكت عما لا علم له به، ذلك أن أمانة الكلمة جليلة، ومسؤولية القول خطيرة، فالله سائل كل قائل عما قال، إن كان حقاً وصواباً، أو كان عن هوى واتباع الظنون، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨]؛ واستشعاراً لهذه المسؤولية وأمانة الكلمة؛ وجدنا العلماء المسلمين يرددون عقب كل جهد بحثي وتحقيق علمي، قولهم: "والله أعلم"[(١)]، احتياطاً وتواضعاً وورَعاً عن القول في العلم عن غير حق، وعن غير تثبُّت.

وهذا الضابط من شأنه أن يُسهم في تقريب وجهات النظر، ويفتح المجال للاستزادة من العلم، ويدفع الباحث والمدرِّس إلى تحري الصواب، والبحث عن العلم الحقيق بالتدريس، والنشر بين الطلبة.

ومِن جهة أخرى يجعل هذا الخلقُ العلميُّ المنهجيُّ المدرس لا يستكبر عن البحث عن المعلومة أين يجدها، ولا يغلق الباب على نفسه، ولا يبقى حبيس كمٍّ معرفي ورثه عمن علموه، ويغدو يكرره في كل فصلٍ دراسيٍّ، فيسعى بذلك إلى تصحيح المعلومات بشكل مستمر، وهذا التصحيح يكون سبباً في بعث روح الوحدة من خلال كسب القلوب، ونشر التسامح بين أبناء الأمة الإسلامية.

سادساً - ترك الاستفزازات الكلامية:

من بين أسباب الفرقة بين أبناء الأمّة تواصل المعارك الكلامية، والجدل المستفز، الذي لا يكون سببه ولا الدافع إليه بالضرورة حبُّ الاطلاع العلمي، بل في الغالب ينشأ انتصاراً للآراء، ودفاعاً عن مواقف، تبريراً لها،

(١) لا يجوز للجاهل أن يقول وهو يعقب على قوله بعبارة: "والله أعلم"، ذلك أنه يوهم أنه يعلم والله أعلم؛ وإنما يقول: "والله يعلم".

أو أيضاً ثأراً وانتقاماً، وكلها خارجة عن إطار البحث العلمي، مخالفةٌ لخلق أهل العلم، مما ينبغي أن يترفع عنه المدرس في العلوم الإسلامية، وبخاصة في مادة العقيدة؛ لأنها على مرِّ القرون كانت عبارة عن مواجهات ومناظرات داخلية بين المسلمين، إلَّا مَن رحم ربي، وكانت من بين أهم أسباب نشر الفُرقة، وتمزيق وحدة الصف الإسلامي، وخدمت بذلك الخصم الخارجي، وما نفعت المنتصر الداخلي على أخيه المسلم.

فالمطلوب من المدرِّس أن يترفع عن تحويل الدرس إلى معركة كلامية هو في غنى عنها، من خلال استفزاز الطلبة، وخاصة عندما يكونون متعددي المشارب والانتماءات المذهبية، فهو بذلك يعيدُ إنتاج أسباب الفرقة التي كانت قديماً بين المسلمين، وغالباً ما يقع هذا أثراً من التشبُّث ببعض الآراء العقدية التي لم يعد ثمة مبرر لتناولها وتدارسها، واتخاذ مواقف من المخالف فيها؛ فمن هذه القضايا مثلاً مسألة القرآن وخَلقه وقِدمه، فوق كونها خارج مدارك البشر، فإنها من المسائل التي لم يعد للتشبث برأيٍ فيها من جدوى ومنفعة للمسلمين، في ظل التحديات الخطيرة التي تواجهها العقيدة الإسلامية، والقراءات الحديثة للنص القرآني التي تحاول كل مرة أن تستثير جملة من الشكوك، حول الأصول الإيمانية.

فمن لهذه القضايا إذا بقي المسلمون ينتجون في الدرس العقدي نسخاً مطابقة لآراء عهود الانحطاط، وعصور الركود الذي أصاب الأمَّة ردحاً من الزمن.

إنَّ مدرِّس العقيدة يمتلك في هذا العصر أكبر الأسباب، وتحيط به جملة من الوسائل العلمية التي تجعله من أحسن الناس موقعاً، ومن أكثرهم أثراً وإسهاماً في إعادة الوحدة إلى المسلمين، ونشر الوعي الإيماني والحضاري بضرورتها، والعمل بكل ما أُوتي المسلمون من أجل الوصول إليها.

❁ ❁ ❁

وبعدُ، فهذا تصور ومدخل إلى الإسهام بما يمكن أن ييسر العمل، في إطار تحقيق وحدة الأمّة الإسلامية، ونحسب أنَّ الدرس العقدي من خلال خصائص العقيدة الإسلامية وضوابط تقديمها من حيث المضمون، أو من حيث شخصية المدرِّس، يعتبر مدخلاً مهمّاً وأساسيّاً، ومن شأنه أن يحقّق وحدة المسلمين، ويسهّل الطريق إليها، نظراً لمكانة العقيدة في النفوس، واعتباراً لخطر سوء التعامل مع مسائلها وقضاياها، حيث إنَّ الأثر يظهر سريعاً وقاسيّاً، لا يخفف منه ومن وقعه، ولا يعالجه إلا مصدره الذي به تنشر العقيدة في الأمة، ومن خلال من يتولى هذه المهمة الشريفة خَلَفاً للرسول ﷺ الذي استطاع أن يوحِّد الأمة من افتراق، ويجمع كلمتها بكلمة التوحيد، فلا يمكن بحال أن تصبح العقيدة التي جمعت الناس على عهد الرسول - عليه السلام - هي التي تفرقهم، ولكن إن حدث هذا فإن الموضوع واحد، لكن من تناوله وتولى عرضه، وتحمل مسؤولية التفسير والتوضيح هو الذي تقع عليه مسؤولية العمل على خطى الرسول الكريم، لتدارُك الوضع، وتصحيح المسار، ومن هنا كان الواجبَ العمل على تصحيح المسار من خلال تصحيح طريق وصول المبادئ العقدية، والأصول الإيمانية إلى العباد.

وإنَّ اتّباع هذه السبيل لن يكون بالأمر المستحيل، ولن يؤتي ثماره إلا بصدق العزم وإخلاص النوايا، وإتقان العمل، واتخاذ الأسباب.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

القواعد الكليَّة في المنهج العقديّ

المدخلُ التقليديُّ لدراسة العقيدة الإسلامية هو مدخلٌ كلاميٌّ صرف، يُعنى أساساً بقضايا وقع فيها الاختلاف، سواءً بين المسلمين أنفسهم، وهو الغالب رغم أنَّه المتأخِّر تاريخياً، أم بين المسلمين وأهل الكتاب، أو بينهم وبين الملحدين من أهل الملل الأخرى.

ومن المداخل المعتبرة ما يُعرف بالمدخلِ النصيِّ، بتفسير القرآن الكريم آيةً آيةً، أو بشرح الأحاديث النبوية حديثاً حديثاً، ثم التعرض لما يتناول العقيدة أو علم الكلام في معرض الآية أو الحديث. ضمن ما يعرف بعلم "التفسير الموضوعيّ"[1]، وعلم "الحديث الموضوعي"[2].

ومن المداخل المعاصرة مدخل الإعجاز العلمي، الذي يبحث في الآيات الكونية المعجزة، وله أتباعه ومناصروه، كما أنَّ له مؤيِّدوه ومنتقدوه.

ولعلَّ من أفيد المداخل، في تقديري، ما يمكن أن نسميه: **القواعد الكلية في علم العقيدة.**

وهذا المدخل يفترض تركيز مواضيع العقيدة في "قواعد كلية" يتم العودة إليها، والاحتكام إليها، شأن القواعد الأصولية، والقواعد الفقهية؛ وهي في مجملها مستمدَّة من القرآن الكريم أساساً، ومن الحديث الشريف الذي هو

---

(١) مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي؛ دار القلم؛ ٢٠٠٥.

(٢) انظر: محمد علي زينو: صفحات في معرفة الحديث الموضوعي؛ مقال.

بيان للقرآن الكريم؛ وفي الغالب تحمل نفَس المنهجِ العقديِّ لا الكلاميِّ؛ أي تكون محلَّ اتفاق وإجماع بين المسلمين، لا مثار خلاف وجدل بينهم.

ومن الأمثلة التي استخرجناها من بين ثنايا هذا البحث، يمكن أن نورد ما يلي:

١- اختلاف الأمَّة نعمة ورحمة.

٢- الاختلاف غير مسوِّغ للخلاف.

٣- إذاعة الاطمئنان بين الناس معيار صادق لصحة العقيدة.

٤- استناد الأصول المذهبية استنباطيٌّ.

٥- الإسلام أوسع من أن يحويه فكر رجل أو مذهب.

٦- الإسلام مكتمل قبل تشكُّل المذاهب.

٧- الأصول العقدية تكتسب معيارية "التأصيل، والوضوح، والإجماع".

٨- الأصول العقدية مشروطة بقطعية الثبوت والدلالة.

٩- أصول المذهب متقاطعة مع أصول المذاهب الأخرى.

١٠- الأصول المذهبية لا تقوم بذاتها، هي في حاجة إلى الدليل.

١١- الأصول المذهبية لها سند من النص، ومتضمنة في الأصول العامَّة.

١٢- الأصول المذهبية متداخلة فيما بينها.

١٣- الانتساب إلى الإسلام، والاتصاف بالإيمان، ليس حكراً على أحد.

١٤- الانتقائية في النص والدليل مشوِّهة للحقِّ، وحطب لتسعير الخلاف.

١٥- الإنسان أحوج ما يكون إلى الإيمان منه إلى غيره.

١٦- الأولى عند اختلاف الآراء التخطي لا التخطئة.

١٧- الإيمان الحقّ يورّث العمل الصالح بالضرورة، والعمل الصالح ثمرة للإيمان الحقّ بالضرورة.

١٨- الإيمانُ فطريٌّ في الإنسان.

١٩- الإيمان منهج وموضوع.

٢٠- البيئة العلمية والسياسية مؤثرة في الفكر الكلاميّ.

٢١- تخلُّف المسلمين نتيجة لتفرُّقهم وتنازعهم.

٢٢- التفويض لا يقتضي الحجرَ على العقل.

٢٣- تقليد المذهب في الفروع، لا في الأصول.

٢٤- التمييز بين أصول العقيدة وفروعها عاصم من التشدُّد والتسيُّب على السواء.

٢٥- التمييز بين أصول العقيدة وفروعها لا يؤثر سلباً في إيمان الإنسان.

٢٦- توحيد الأصول غير معطِّل للاجتهادات الفردية.

٢٧- توحيد الأصول ليس دعوة إلى اللامذهبية.

٢٨- الحديث المحتمل للحقِّ لا يردُّ.

٢٩- حرية الرأي مكفولة شرعاً وعقلاً.

٣٠- حَفِظ الله تعالى الإيمان والقرآن معاً.

٣١- الحواجز المفاهيمية والأحكام الحدية حائل دون وحدة الأمة.

٣٢- حياة الإنسان تدور في فلكِ الخضوع لله سبحانه.

٣٣- الخيرية رهينة بصفاتها.

٣٤- الدنيا دار ابتلاء، والآخرة دار جزاء.

٣٥- دين الله تعالى هو دين الفطرة.

٣٦- الرضا والسخط هما مما يختصُّ الله تعالى به.

٣٧- الشنآن غير مبرر للجور والتعدِّي.

٣٨- شهوة الخلاف تشوُّه قلبيٌّ، مؤدٍّ إلى الانحراف العقليّ والمنهجيّ.

٣٩- الصدع بالحقِّ لا يبرِّر الاشتغال في بيان أخطاء الآخرين.

٤٠- الصدع بالحقِّ لا يعني التنكر للمذهب.

٤١- طريقة التفسير، والرؤية إلى الوجود صابغة للأصول المذهبية.

٤٢- عالِم العقيدة إنسانٌ معنيٌّ بالأحكام التي تسري على غيره.

٤٣- العجز عن الإدراك إدراك.

٤٤- العقل مناط التكليف.

٤٥- عقيدة التوحيد متآلفة الأجزاء غير متنافرة.

٤٦- العقيدة ترجع إلى أصل واحد هو التوحيد.

٤٧- العقيدة تستوعب جميع علاقات الإنسان الكونية.

٤٨- العقيدة مؤسِّسة للسلوك الذي يرتضيه ربُّ الإنسان.

٤٩- العقيدة هي جملة تصورات الوجود بشقّيه: عالم الشهادة وعالم الغيب.

٥٠- العقيدة هي ركنُ الدين وعمادُه.

٥١- علم العقيدة سجال وتداول.

٥٢- الفرق بين المسلم والكافر "شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وأنَّ ما جاء به حقٌّ من عند الله".

٥٣- الفرقة الناجية هم الصالحون الموفون في كل مذهب، والفرقة الهالكة هم المنحرفون من كل مذهب.

٥٤- الفعل الحضاريّ لا يؤسَّس إلّا على مثله.

٥٥- في الاشتغال عن أصول الإيمان تضييع لواجبٍ شرعيٍّ.

٥٦- في التأليف العقديّ يراعى النأي عن حدود التماس والخلاف بين المسلمين خاصَّة.

٥٧- كلُّ عمل في السلوك البشريّ يستند إلى تصوُّر وعقيدة.

٥٨- كلُّ قول أو رأيٍ محكَّم إلى كلام الله تعالى، وإلى السنة النبوية الصحيحة.

٥٩- لا أحد من البشر معصوم، سوى من عصمه الله تعالى.

٦٠- لا تخطئة في ظنيٍّ.

٦١- لا تستوعب الأصول المذهبية جميع قضايا الإيمان.

٦٢- لا تكتسب الأصول المذهبية قوة الأصول العامة، ولا تحلُّ محلَّها.

٦٣- لا فرق بين المسلم والمسلم، إنما الفرق بين المسلم وغيره في الملة، وفي أصول الإيمان، وفي أحكام الشريعة.

٦٤- لا يُتصور اتحاد أمَّة ما لم تتوافق في منظومتها المعرفية.

٦٥- لا يتمايز الناس عند الله إلَّا بالتقوى.

٦٦- لا يخطَّأ المخالف في مسألة لا دليل قاطعاً فيها، ويحرم تضليله فيما لا حجة قطعية عليه، وله فيه شبهة ولو بعيدة.

٦٧- لا يساوى بين الأمر الإلهي، وبين الاختيار البشري.

٦٨- لا يسمَّى أصلاً عقديّاً إلَّا ما كان موحىً به، وغير مختلف على فهمه وتفسيره.

٦٩- لا يغلق باب التفسير فيما لم يتم فيه التفسير.

٧٠- لا يلزم على كون دليل المخالف غير معلومٍ لنا، أن يكون القائلون بتعيينه قد تكلَّموا بلا علم.

٧١- لازم القول ليس بقول، ولازم المذهب ليس بمذهب.

٧٢- الله تعالى لا يغيِّر إلَّا بما يلائم سننه.

٧٣- الله سبحانه متَّصف بجميع صفات الكمال، منزه عن جميع صفات النقص.

٧٤- لو أُحسِن الظنُّ بالمخالف كما أُحسن الظن بالموافق لهانَ الكثير من الخلاف.

٧٥- لولا شرعية الاختلاف لكان الدين إيديولوجية صماء جامدة.

٧٦- ليس المذهب والانتماء سبباً لعدم القبول من الطائع.

٧٧- ليس من الشرع أن يشتغل الناس بتصنيف المكلَّفين بأعيانهم.

٧٨- ما اتفقت عليه الأمة هو الأصل، وما اختلفت فيه هو الفرع.

٧٩- ما كان أثراً من غيره فهو فرع عنه.

٨٠- ما يجوز فيه الخلاف مبنيٌّ على ما لا يجوز فيه.

٨١- متون العقيدة وعلم الكلام حامل لتاريخ المسلمين، ومفسر له.

٨٢- المثال ليس دليلاً، وهو غير مسوغ لتعميم الحكم.

٨٣- المخالفون لنا في الرأي محمولون على حسن الظنِّ.

٨٤- مدار المنهج في العقيدة أن نحفظ للأمة وحدتها وللمذاهب تميُّزها.

٨٥- المذاهب متمايزة بمنطلقاتها وخياراتها المنهجية.

٨٦- المذاهب متوافقة في الأصل ذاته متباينة في تفسيره.

٨٧- المذهب ليس خروجاً عن الشرع، بل طريق لفهمه وتمثُّله.

٨٨- المذهب والانتماء لا يشفعان للعاصي ولا يبرّران له.

٨٩- المذهبية نعمة على الأمة ما لم تتحول إلى التعصب والادعاء، والتشدد في المواقف.

٩٠- المزالق عن الإيمان تتلوَّن بلون العصر.

٩١- المسلمون يجمعهم قرآنٌ واحدٌ، وسنَّة واحدة.

٩٢- المصدرية العقدية مستقلة عن البشرية.

٩٣- معرفة الله وتوحيده هو أساس الإيمان.

٩٤- من أعلن الشهادة حرم دمه وماله وعرضه، إلا بحقِّها.

٩٥- مِن شأن توحيد الأصول العقدية التيسيرُ على المكلَّفين.

٩٦- المنظومة التربوية أعظم بوابة إلى وحدة الأمَّة.

٩٧- الموفَّي متحرٍّ للحقِّ أساساً، مصيب ومخطئ اجتهاداً.

٩٨- النص الصحيح البيِّن مانعٌ من الاضطرابِ الوجوديِّ.

٩٩- وُجدت مجتمعات بلا علم، ولكن لا يسجل التاريخ وجود مجتمعات بلا دين.

١٠٠- وحدة المسلمين مشروطة بالتوحيد.

١٠١- الوقوف أولى من الإنكار وأسلم.

١٠٢- يريد الله بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر.

أخطاء في المنهج من مصادر علم الكلام

١- ادعاء أنَّ الآخر المخالف هو بالضرورة على خطأ.

٢- الادعاء أنَّ ما معي من الأدلَّة قطعيٌّ، وأنَّ ما جاء به غيري واه وضعيف.

٣- ادعاء تطابق التفسير مع النصِّ الأصلي.

٤- استحلال الدم بسبب خلافٍ كلاميٍّ.

٥- الاستدلال بأحاديث ضعيفة، أو موضوعة.

٦- استعراض الآخَر ليكون له نفس رأيك.

٧- استعمال المسائل "التاريخية"، أو "الفرعية" في الجدال والبحث عن الفرقة الناجية.

٨- أسلوب التصيد والتبشير بضلال الغير.

٩- اشتغال الناس بتصنيف المكلَّفين حسب تقواهم بأعيانهم.

١٠- إطلاق الأحكام والأوصاف التبديعية، وجعلها أساساً للعقيدة.

١١- اعتبار المنطق الأرسطي معياراً للاستدلال، والوقوع في التناقض.

١٢- اعتقاد مسائل تفتح منافذ للشك في عدل الله تعالى.

١٣- اعتماد أقيسة فاسدة.

١٤- الإلزام المرفوض عقلاً وشرعاً ومنهجاً، بما لم يصرح به الخصم.

١٥- الانتساب إلى القرآن والسنة مع نفيه عن المخالف.

١٦- تدخُّل الإنسان وفكره في مجال الغيب.

١٧- تسوية الموحدين بالكفار في الرأي وفي الحكم.

١٨- التسوية بين الموحِّد والمشرك في حكم أو صفة.

١٩- تشبيه الآخر المسلم بغير المسلم.

٢٠- التصريح بالشرك في حقِّ المسلم.

٢١- التعصب لإمام من أئمة المسلمين على حساب غيره من الأئمة.

٢٢- تعلم العقيدة بمنهج تعلم الهوايات، وعدم اعتبارها فناً له أصوله.

٢٣- التقارب بين المذاهب الإسلامية مستحيلٌ.

٢٤- تكفير الآخر وإخراجه من الملة لخلاف في مسائل علم الكلام الفرعية.

٢٥- تكفير المتأول المخطئ التأويل في نظرك.

٢٦- تنصل الدولة من رعاية التدين الشخصي لدى مواطنيها مورث للشقاق.

٢٧- توظيف الحكم باعتماد الآية في وصف الآخر بالضلال.

٢٨- توظيف مصطلحات لها مفاهيم كونية مخالفة لمنظومة الإيمان.

٢٩- الجدل مع عدم اتحاد محل الاختلاف.

٣٠- جعل العقل أساساً للحكم على القرآن، لا القرآن أساساً للحكم على العقل.

٣١- جعل المثال دليلاً أو حكماً على الآخر.

٣٢- جعل الهلاك مقصداً للشارع، بخاصة لأمة الوحي المؤمنة به.

٣٣- حشر مسائل من السياسة الشرعية تحت مسمًّى التوحيد، بخاصة مسألة الخروج على الإمام حرمة وجوازاً ووجوباً.

٣٤- الحقُّ واحدٌ مع واحدٍ، لا اختلاف حوله.

٣٥- سوء التعليم، وبخاصَّة في التعليمِ الشرعيِّ، أكبر هادم لوحدة الأمة.

٣٦- صياغة فروض بعيدة، لا دليل عليها.

٣٧- عدم التثبت فيما ورد عن الغير، بخاصة إذا كان متبوعاً بحكم تكفير أو تفسيق أو تشريك.

٣٨- عدم التثبت، ورمي الرواة الذين رووا أحاديث تخالف رأيك بما لا يليق.

٣٩- عدم التوقف فيما لا يدركه العقل من أمور الغيب، والقول فيه بلا دليلٍ قطعيٍّ.

٤٠- غياب المدخل الفكري في الدرسِ العقديِّ صيَّره مفصولاً عن واقع الإنسان المسلم.

٤١- فصل الوحدة عن التوحيد انحراف في المنهج والعقل.

٤٢- الفصل بين حفظ الله تعالى للعقيدة، وحفظه للقرآن الكريم.

٤٣- مخاطبة الناس بما لا يفهمون.

٤٤- مخالفة القاعدة التي تقرُّ بها مذهباً، وتطبيقها على غيرك سلباً، وعلى رأيك إيجاباً.

٤٥- المصادرة على المطلوب.

٤٦- نقل أخبار فيها خدش لكرامة ملَك، أو نبي، مما هو غيب.

٤٧- نقل معلومات عن الغيب مما لم يرد به نصٌّ قطعيٌّ، تجوُّزاً وطلباً لمعرفة ما سكت عنه الشرع.

مقالات في أصول الإيمان

سذاجة الإلحاد

هل يوجَد إلحاد خالص؟

هذا ما فكّرت فيه مليّاً، وحاولت أن أحرّك عقلي ليجيب عن هذا السؤال، فلم أستطع... ذلك أنَّ كلَّ إلحاد يؤول لا محالة إلى شرك، وما ذلك إلّا لأنَّ الإنسان ضعيف، يعتريه المرض، والفاقة، والانهزام، والقلق... فيحتاج إلى قوَّة يلوذ إليها، ويستمدُّ منها المدد والعون، فإن لم تكن هذه القوَّة حقيقةً (الإله الحقّ)، بغضّ النظر عن اسمه؛ كانت زائفة، فاتخذت شكلاً آخر، مثل: المادة، والعقل، والبشر، والعصبية...

ولذلك كان الإلحاد سذاجة وصبيانية في التفكير، وكان ادّعاءً وزعماً لا تسنده أدنى حجّة أو أثارة من علم، ولو واهية... إنه محض ادّعاء، ومجرَّد افتراء.

يقول أحد الملحدين في غرور وصلف: "لو أردتُ من نفسي وعقلي أن يشكّا لما استطعتُ، ولو أنّي نفيتُ إيماني بالقول لَما صدَّقتُ أقوالي، فشعوري أقوى من كلِّ أقوالي. ماذا لو أنَّ إنساناً قال: إنه لا يحبُّ نفسه، أو لا يحبُّ الحياة؟ هل يصدِّق هو كلامه؟ هل يمكن أن ننفي أنفسنا أو إحساسنا بها بالكلام؟ إنَّ الحقائق الكبيرة لا تُسقطها الألفاظ. كذلك الإيمان بالله والأنبياء

والأديان من الحقائق القوية، التي لا يمكن أن تضعها أو تشكَّ فيها الكلمات، التي قد تجيء غامضة أو عاجزة؛ لأنَّ فورة من الحماس قد أطلقتها.

إنَّ إيماني يساوي: أنا موجود إذن أنا مؤمن، أنا أفكِّر إذن أنا مؤمن، أنا إنسان إذن أنا مؤمن".

ومع ذلك بقي هذا المتعجرف ملحداً، وساق الكلمات التي خادع بها فطرته، وهو ناطق بهذا الخداع والادّعاء.

إنَّ العقل يقوم على جملة من المبادئ والثوابت، لا يحيد عنها، فإن هو نفاها نفى التفكير كلية، ومن جملة هذه المبادئ يذكر العلماء:

- مبدأ عدم التناقض
- مبدأ العلية
- مبدأ الغائية
- بطلان الرجحان بلا مرجِّح
- مبدأ عدم التسلسل
- مبدأ عدم الدور

والقول بالإلحاد ينفي هذه المبادئ وينسفها نسفاً، وينزع من الحياة معنى "المعنى"، ويحيلها إلى فوضى عارمة، لا نظام فيها، ولا مقدّمة ولا نتيجة، ولا أثر ولا مؤثِّر. قال تعالى مستنكراً هذا الجحود: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥]، فإنَّ أبسط إنسان، بل إنَّ صبيّاً في وقت لعبه ولهوه، لو قلت له: إنك عابث، ولا معنى لما تفعل؛ فإنه سيشتط حنقاً وغضباً، وسيدافع عن "معنى" أفعاله؛ بل إنَّ بعض المجانين، مع الخللِ العقليِّ الذي هم فيه، لو قيل لهم: أنتم مجانين، ولا "معنى" لما تفعلون، تراهم يدافعون - ببعض العقل الذي بقي معهم - عن مواقفهم، وينكرون على القائل مقولته.

لكن، ما الذي جرَّأ الإنسان مع ذلك أن يقول، لمن خلَقه، وخلق كلَّ شيء له، وكرَّمه، وحمله في البر والبحر، ومنحه نعمة العقل... يقول له في حماقة لا حدَّ لها: أنا لا أؤمن بك، بل لا أظنُّ أنَّ ثمَّة إلهاً؟... فيدعي بالتالي أنه وُجد عبثاً، بلا غاية، ولا نهاية... بل، بلا خالق خلقه، وإنما هكذا صدفة.

فمن يلحد عموماً، تراه يؤله:

أولاً - هواه: قال تعالى عن هؤلاء: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٣]، ومن الغريب أنَّ نقطة الضعف في الإنسان هي الهوى، والإنسان يعلم ذلك، فكم أرْدَت به مهاوي الهلاك، وأورثته الحسرات، ولكنه مع ذلك: يجعله إلهه، ويعبده، ويستجيب لرغباته، وينزل عند طلباته، فينكر ما سواه، ويجعله شريكاً للذي خلقه، بل بديلاً عمَّن خلقه...

ثانياً - الدهر: إنَّ الدهر في أصله هو عالم الزمن، وهو الوقت، وكل عاقل مهما قصر في عقله يعلم أنَّ الزمن ليس بعاقل، ولا إرادة له، ولا قوَّة، إذن لا سلطان له على أحد البتَّة... ومن جحود الجاحدين أنَّهم يتنكَّرون للخالق الذي وهبهم الروح، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فينسبون الخلق والإهلاك والإماتة للدهر، فيؤلِّهونه، وهم يظنُّون مع ذلك أنَّهم يلحدون، وينفون الآلهة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٤]. ويسمَّى هؤلاء في تاريخ الأديان بالدهريين، نسبة إلى الدهر.

ثالثاً - المفاهيم: من تخرصات المتخرصين، أن يجعل بعض الفلاسفة الملحدين إلههم مجرَّد "مفهوم من المفاهيم"، ويلبسونه كلَّ قدرة وكلَّ معنى من معاني الألوهية، وهذا نوع آخر من التأليه.

يقول برودون في كتاب (مؤلفات مختارة)، بعنوان (التعرف إلى مطلق ميتافيزيقي): "إذا أنت أثبت العدالة، فهل أثبت بذلك المطلق؟ هل أثبت الإله؟"، ثم يجيب: "نعم، أثبته كمفهوم من المفاهيم، لا كصانع وسيد يقتضي الأمر مني السجود بين يديه والخشوع"[١].

ثم يقول في مكان آخر: "الإله... غير موجود، وليس بالإمكان وجوده بالمعنى الذي يعطيه الميتافزيقيون لهذه الكلمة".

بل إنَّ برودون في صلفه يدَّعي أنَّه لا ينكر المطلق كسين جبرية، فيجعل الإله بالتالي مجهولاً رياضيّاً، فيقول: "أنا لا أنكر المطلق بوصفه من تصورات الفهم، يفيد كالسين الجبرية للدلالة على الجزء الممتنع في أساس الظاهرة، بل أنكره بوصفه موضوعاً علميّاً، ليس بمقدوره بهذا الوصف أن يفيد كنقطة انطلاق لأية معرفة صحيحة"[٢].

وأنا لا أستغرب أن يصدر مثل هذا التحليل المعوج من ملحد، اتّخذ الإلحاد ديناً؛ بل أستغرب أن يتبنى مثل هذه الأفكار من يفترض فيه أنه قد نالته الهداية الربانية، من أبناء العالم العربي، بل الأغرب من ذلك أن يتخذ مثل هذا الفيلسوف مصدراً لتوجه سياسي واجتماعي وثقافي، يسمى بالاشتراكية، وتقاد الأمم الإسلامية عنوة إلى سجن هذا الفكر السافل، فرأينا: مصر الاشتراكية، والجزائر الاشتراكية، وسورية الاشتراكية... وبعد زمن تسقط الاشتراكية الملحدة العالمية، فيغيِّرون اللون، لكن نحو إله جديد، ومعبود آخر... معرِضين عن الله الواحد القهار، وبهذا نفسر تخلف هذه الأمم عن ركب الحضارة، وانشغالها بالضحضاح... وهو من تمام عقاب الله تعالى.

---

(١) برودون: مؤلفات مختارة؛ جمع وترتيب: جان بنكال؛ ترجمة عمر شخاشيرو؛ سلسلة أصول الفكر الاشتراكي، دمشق ١٩٦٩م؛ ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) م. س.

الطحالب الآلهة!

أطالع أغلب ما يقع بين يديَّ من كتب ومقالات عن الزمن، فأجد البعض منها مَصاعدَ للرقي والتألق، وأجد البعض الآخر مستنقعات للأفكار المتخثرة الفاسدة؛ وكثيرٌ منها ما هو إلَّا "رجع الصدى"، جمعها أصحابها بعملية "نسخ - لصق"، التي صارت يسيرة جداً، في عالم الإعلام الآلي؛ ولقد وقعت عيني، بفضل صديق لي في الأكاديميا[1]، على كتاب مترجَم، لكاتب لا أعرفه من قبلُ، وهو "إدواردو غاليانو".

وحيث إنني لا أصدِّق أنَّ كلَّ ما جاء من الغرب هو سمن وعسل؛ إذ أحياناً يأتي منه السمُّ الزعاف؛ كنتُ دوماً أقرأ بعناية ونقد وتفحُّص؛ فجاء هذا الكتاب، هذه المرَّة، معنوناً بـ "أفواه الزمان"، ليصكَّ آذاننا بصوت هو من أنكر الأصوات، إنه صوت "الصدفة والتطور والعبثية"، فقلت في نفسي: "ما الذي جاء بهذا إلى هذا السياق؟"، وكان الجواب: "أنَّ الضلال - اليومَ - لا يفتر ولا يتوانى عن افتكاك المساحات في عوالمنا وأفكارنا، فهو عَمَّال ومجتهد، بينما الصلاح للأسف - في وقتنا - كثير منه وقع ضحية كسل أهله، وتقاعسهم عن المهمَّة!".

قال غاليانو "فضَّ الله فاه" - إن صحت العبارة، واستجيب الدعاء -: "قبل الماقبل، في أزمنة طفولة العالم، عندما لم تكن ثمة ألوان وأصوات، كانت هي، الطحالب الزرقاء، موجودة، وكانت تطلق أوكسجيناً، فمنحت لوناً للبحر والسماء. وفي يوم طيب، في يوم استغرق ملايين السنين، خطر لطحالب زرقاء كثيرة أن تتحول إلى طحالب خضراء. وراحت الطحالب الخضراء تولِّد، قليلاً قليلاً، إشنيات، فطوراً، وتولِّد كلَّ الألوان والأصوات

---

(١) الأكاديميا: مركز بحث في تركيا، كنت ملحقاً بحثيّاً موظفاً فيه، لمدة ثلاث سنوات (باباعمي).

التي أتت، أتينا، فيما بعد، لنملأ البحر والبر صخباً... ومن العالم القديم الذي كان، تنظر هذه الطحالب إلى العالم الذي صار، لا أحد يعرف رأيها".

حقّاً إنَّ من الناس مَن يُنسب إلى العلم، ويؤلِّف كُتُباً وأسفاراً، لا يحترم نفسه، ولا يعرف قدْره؛ فيظن - وهو الجاهلُ - أنه يعلم شيئاً، ثم يُلقي به حَنْظلاً وزقُّوماً، فتتلقّفه الفِراخ الجائعة، وتصنع به حلوى ودعايات؛ ثم تسوِّقه إلينا، كما هو، بلا نقد ولا تمحيص، كأنما جاء من الملأ الأعلى؛ فإذا ما واتت الفرصة، سمعتهم يقولون: "الغرب هو العلم، هو الحضارة، هو الصواب... وغيره، كله، بلا استثناء، هو التخلف، والهمجية، والجاهلية...". وكثير منهم يتجاوز حدَّه فيلقي باللائمة على "الوحي"، وعلى "رسول الوحي"، بل حتى على "ربِّ الوحي" تعالى علوّاً كبيراً.

وها نحن اليوم أمام إله جديد، بل آلهة جديدة؛ بعد أن كان الإله المُشار إليه بالبَنان، هو العلمُ والعلموية، والمادة والمادية... فجاء هذا "الإله: وهو الخالق - في اعتقادهم - وهو البارئ، المصور، المبدع، القديم"!!!... تحت مسمَّى "الطحالب"! ذلك أنها هي التي أوجدت ذاتها، وهي التي منحت الزرقة للكون، وهي التي "خطر" لها أن تتحول إلى طحالب خضراء، فعمدت الطحالب الخضراء إلى الخلق، لتخلق الألوان والأصوات، والنباتات والحيوانات، بل وحتى البشر! بعناية فائقة، وقدرة عجيبة. وهي اليوم تراقب من علٍ، وترى المخلوقات ولا تُرى؟!

لكن، أين الدليل، وماذا يعني إلقاء الكلام على عواهنه بلا حجَّة؟ وأين العلم، وأخلاق العلم، والصدق، والأمانة؟!

كلُّ ذلك يُرمى في الزّبالة، لأجل داروين، ونيتشه، وميكافيللي، وفرويد... وغاليانو، وهاوكينغ... ولا نلومهم، فهذا مذهبهم، وذاك اختيارهم، وهم صرحاء فيه إلى حدِّ الصّلَف والوقاحة، ولهم عند الله جزاءُ المثل... وإنما العجب في شباب - وهم قلَّة ولله الحمد - من بني جلدتنا،

ومن فتيان مدارسنا، ومن أطفال قريتنا ومدينتنا ووطننا... صاروا يرددون هذه السخافات، ويؤمنون بها، ويفصلون في حياتهم بين "عبادة فردية"، هم لا يقصّرون فيها؛ و"عبادة حضارية"، لا شأن لهم بها.

ألا ما أقبح الجهل، وما أرذل الذُّل ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٢٧].

أمّا نحن، فنرفع التحدي، ونقف - بعون الله - في المرصاد، مهما كلّفنا ذلك من غالٍ ونفيس، ونهيبُ بكلِّ مسلم أن يجاهد ويجتهد في حقل العلم والمعرفة، كيْما نرى اليوم الذي تشرق فيه شمس الإسلام على العالم أجمع، لا على الغرب لوحده.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠/٤-٥].

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ٢٠/١٣٢].

❀ ❀ ❀

لَا إِلَهَ إِلَّا الله، الكلمة الطيبة

إنها كلمة التوحيد، وكلمة التقوى، والكلمة الطيبة، التي قال عنها ربُّ العـزَّة: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ، تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٤-٢٥].

هي أفضل ما نطق به اللسان عبر الأزمان.

وهي أعظم ما سمعت الأذن من كلام.

لا تنظُرْ إليها كأيِّ جملة في الأدب، ولا كأيِّ فكرة من عالم الفلسفة، ولا كأيِّ خبر في التاريخ...

فهي ليست حروفاً مجرَّدة، بدايتها: لام وألف... ونهايتها: لام ثم هاء...

إنها ليست كذلك، ولا ينبغي لها أن تكون كذلك... فلو وُجدت لغة أخرى، وصيغة غير ما ألف البشر، لنزلت "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" بها... لكن، رحمة بنا، وشفقة على قصورنا وضعفنا، أنزلها الله سبحانه وتعالى من السماء العليا إلى الأرض الدنيا، بلساننا ولغتنا... فلا ينبغي أن تغرينا تلكم الرحمة والشفقة، فننزل بـ"لَا إِلَهَ إِلَّا الله" إلى حضيض البشرية، والترابية، والدونية... ونسويها بغيرها مما صاغه عقل إنسان.

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله" معبَرٌ من العالَم العلويِّ إلى العالَم السفليِّ، اعتنت بها العناية الربانية، فحملتها الملائكة، وعلى رأسهم روح القدس، آيات من الله العليم... لتودعها في قلب كلِّ نبيٍّ، من لدن آدم عليه السلام، إلى سيد الخلق محمَّد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم...

ثم كانت "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" أكبر مؤنس للبشرية في طريقها الوعر، المليء بالمكاره والأشواك، وأعظم طمأنينة للنفس؛ فإن هي آمنت داومت الملازمة، وأكثرت من ذكرها في كلِّ حين، وجعلتها منهج حياة... أمَّا من جحد منهم،

فإنه شاء أم أبى سيتذكَّرها أوان تحقُّق الهلاك، وتعين الضمار، فلن تنفعه في دنياه ولا آخرته.

ألم يقل فرعون في تلك اللحظة: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ١٠/٩٠]، لكن، ولات حين مندَم.

وستكون "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" معبراً للمرَّة الثانية، من العالمِ السفليِّ إلى العالمِ العلويِّ... من دار الفناء إلى دار البقاء...

فكلُّ إنسان، من عهد آدم عليه السلام، إلى آخر إنسان في الوجود، سترافقه "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" في رحلته الشاقَّة يوم الحساب، وستكون شاهداً له إن وفَّاها حقَّها، أو شاهداً عليه إن ضيَّع معناها.

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله" لا تحفظها الألسن كما تحفظ بيتاً من الشعر، ولا تحلِّلها كما تحلِّل معادلة رياضية... بل الواجب عليها أن تعلَمها علم اليقين، وتعي مداها، وتسبر غورها، وتفكِّر في منشئها، وتنظر في منتهاها... عين اليقين... ولذلك لم يقل الله جلَّ جلاله: "فقل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، ولكنه قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٤٧/١٩].

لا يشترط في هذا "العلم" أن يكون صاحبه حاصلاً على شهادات عليا، ولا أن يكون مؤسِّس نظريات كبرى، وإلَّا لشقَّ على الناس أمر الدين، ولدخلوا في الجنَّة كما يدخلون في جامعة راقية...

لكن، هذا "العلم" بـ"لَا إِلَهَ إِلَّا الله" أساسه: وعيٌ صادقٌ، وعقلٌ حاضرٌ، وقلبٌ نظيفٌ طاهر... قد تحظَى به العجوز، وقد يدركه الزمِن، وقد يندُّ عن العالِم...

أمَّا إذا علِم العالِم حقيقة "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" فإنه سيرتقي مراقي لم يصلها أحد قبله إلَّا الأنبياء، كذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٣٥/٢٨].

وإذا أردتَ أن تعلّم شيئاً لأحد، أو لقوم، فيخلد لك الأجر، ولا يتوقف عدَّاد حسناتك إلى يوم الدين، فاجتهد أن تعلّمهم "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

خذ طفلاً صغيراً، واجلس إليه، وعلّمه أن تكون أولى كلماته، وأحلى كلماته، وأبدع كلماته: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

لا تقل: إنها ستصعب عليه؛ ذلك أنَّها يقيناً ستصادف فطرته التي فطر عليها، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠]، وستكون له بمنزلة شربة ماء بارد في قائلة صيف حار.

أروع ما سمعت أذناي على الإطلاق: لسانَ ولدي الرطب، وشفاهه الغضَّة، وهي تقول متلعثمة: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"... "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"... "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

كلُّ النبيين، بلا استثناء، أمَروا قومهم بـ "لَاإِلَهَ إِلَّا الله"، قائلين: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾... إنها حقيقة كونية لا مراء فيها ولا جدال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٥].

ومن الخطل والجنون أن نعتقد أنَّ نبيّاً أمّنه الله في "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، وأمره أن يحملها إلى قومه، لا يملك لها تحويلاً، ولا نقصاناً، ولا زيادة... ثم يخون هذا النبي أمانته، ويدَّعي أنَّه هو "الإله"... ذلك أنَّ من وعى حقيقة "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" عرف قدره وعرف قدر ربِّه، فاستحال أن يجاوز قدره فيرفعها إلى مقام الألوهية، أو ينزل قدر ربه إلى مقام الترابية ...﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٩-٨٠].

ولذلك، كان اليهود أعتى أعداء "عزير"، ذلك أنهم قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ

﴿ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠]. وكانت النصارى، ألدَّ أعداء "المسيح"، بقولهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠].

فلو قام المسيح اليوم، وواصل رسالته، لكان أوَّل شغله، وأفضل عبادته، أن يحارب قوماً ألَّهوه، وكذبوا عليه، وأنزلوه منزلاً يتحرَّج به أمام الربِّ يوم الحساب، حتى يقولها صريحة: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦]، ثم يكتبها شعاراً إلى يوم الدين، عنوانه "لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّه"، فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٧]، وكلُّ هذا، جواباً على سؤال ربِّ العزَّة، جاءه تبكيتاً للضالِّين والمكذِّبين: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦].

ومن بديع معاني هذه الآية، أنه تعالى قال: "من دون الله"، ولم يقل: "مع الله"... في حين أنَّ النصارى يقولون ثالث ثلاثة، ولا ينفون الله...

ذلك أنَّه سبحانه إذا أُلِّه غيرُه استغنى عن المؤلَّه، فهو أغنى الشركاء عن الشريك، فإمَّا أن يكون هو ولا أحد، أو لا يكون إذا كان معه أحد...

يقول الشيخ محمد الغزالي: "وشهادة التوحيد، حين ترسلها في ساحة الحياة، فأنت بهذه الشهادة لا تطلق خبراً هو بعض ما يتداوله الناس من كلام، أو يتناقلونه في حديث.

إنها شهادة تعني إحقاقَ حقٍّ، وإبطالَ باطلٍ...

إنها شهادة تعني أنَّك قرَّرت المضيَّ في الحياة وفق خطَّة تنابذ الشركاء العداء، وتقرُّ لله بالوحدة...

إنك بهذه الكلمة أبديت وجهة نظرك في قضايا كثيرة تشغل الناس ليلاً ونهاراً...

إنَّ الشهادة ليست فقط دلالة إيمان، بل هي معالنة برأي، وبداية لسلوك".

أخي المؤمن، ركّز جيّداً، وتطهَّر، ثم انطق كلمة الشهادة، وقل: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" بملء فيك، وحاول أن تجد حلاوتها في قلبك، وتسري لذّتها إلى جميع جوارحك، ثم استحضر "قضيةً" تشغل ذهنك هذه اللحظة، أو "مشكلةً" استعصى عليك أمرها... وسلِّطها على منهج "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، ثم استنزل الحلَّ أو الحلول لها، بناء على هذا المنهج الفريد...

ثم توكَّل على الله، واستغفره من ذنوبك، واشرع في تطبيق الحلِّ على أرض الواقع، وانزل به إلى ساحة الحياة... واحذر أن تحيد عن منهج "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" قيد أنملة...

فأنا على يقين أنَّ "قضيتك" ستجد أفضلَ حلٍّ، وأنَّ "مشكلتك" ستنفرج بإذن الله تعالى... لكن، فقط لا تستعجل، ولا تقنط... واحرص أن تلازم قول "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، واعتقاد "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، والعمل تحت راية "لَا إِلَهَ إِلَّا الله".

بشرى لك لقد ولدتَ من جديد...

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله محمد رسول الله، ﷺ"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله على ديني، وعلى نفسي، وعلى عقلي... وعلى جميع جوارحي"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله على أهلي، وعلى أولادي، وعلى مالي"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله على كلِّ شيء أعطانيه ربِّي"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله ربُّ السموات السبع، وربُّ الأرضين السبع، وربُّ العرش العظيم"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله أحصِّن بها يميني وشمالي، وفوقي وتحتي، وأمامي وخلفي"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله حصنك ربِّي، ومن دخل حصنك أمن عذابك... ربِّ دخلت حصنك بـ "لَاإِلَهَ إِلَّا الله" فأمِّنِّي في روعتي، واستر عورتي، واكشف كربتي"

"لَا إِلَهَ إِلَّا الله على جميع خلق الله..." فإن تولوا فقل:

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٩].

❀ ❀ ❀

لَا إِلَهَ إِلَّا الله
في عين الرسول عليه السلام

إنَّ "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" هي عنوان الإسلام، ودليل الإيمان، وهي الحجة بين العبد والعبد، وقد حرص رسول الرحمة على أن يحصن المسلم في دمه، وماله، وعرضه... بمجرد أن يقول: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، أمَّا ما أخفاه القائل ممَّا لا يطَّلع عليه البشر، فلا يُبحث عنه، وإنَّما أمرُه إلى الله تعالى وحده، وهو العالم بخفايا الصدور.

ولذلك، قال عليه الصلاة والسلام، في حديث متفق عليه: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فمن قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله فقد عَصَم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»[1]. أمَّا معنى الاستثناء: "إلَّا بحقِّه"، فقد فسَّره حديث آخر بالحدود، أي من وجب أن يقام عليه حدٌّ من حدود الله تعالى فقد زالت العصمة منه، لأجل ذلك الحدِّ، وقد يكون الحدُّ كفَّارة لذنوبه، فيكتب بعد أن يقام عليه، مع التوابين، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ: «من جحد آية من القرآن فقد حلَّ ضرب عنقه، ومن قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، فلا سبيل لأحد عليه، إلَّا أن يصيب حدّاً فيقام عليه»[2].

ولا يجوز لأحد أن ينقِّب عن النيات، أو أن يتَّهم أخاه المسلم بظنٍّ أو شكٍّ، ففي حديث أنَّ خالد بن الوليد، رضي الله عنه، قال عن رجل: "يا رسول الله، ألا أضرب عنقه"، قال عليه الصلاة والسلام: "لا، لعلَّه أن

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، ومسلم، في كتاب الإيمان، والترمذي، في كتاب الإيمان، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الحدود، رقم ٢٥٣٩.

يكون يصلِّي"[١]، والصلاة وعاء "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، غير أنَّ خالداً، إذ لم يقتنع، قال: "وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه"، وما كان لرسول الله أن يأخذ الناس بالظنَّة، ولا أن يورِّث المسلمين فتناً كقطع الليل المظلم، ويجعل دماء الناس وأموالهم عرضة للسفك والنهب... فدينا رحمة للعالمين، ورحمة من ربِّ العالمين...

وهذا رسول الرحمة - عليه السلام - يجيب خالداً بصرامة ووضوح، فيقول: "إني لم أومر أن أنقِّب عن قلوب الناس، ولا أن أشقّ بطونهم"[٢].

ومن الفتن القاتمة المهلكة الحالقة التي يشهدها المسلمون اليوم، فتنة استسهال سفك الدماء، والحكم على الناس بالظنَّة، وترديدهم لعبارة: "وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه"، و"كم من قائل: لا إلا الله، وهو ملحد كافر مشرك..."، فراح الشباب يستحلون دماء الناس، وكوَّنوا جماعات فأرعبوا الناس، ولم يكن فعلهم هذا نافعاً للمسلمين، بل أضرَّ بهم أكثر مما أضرَّ بالمشركين...

فعقيدة "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" جاءت رحمة للعالمين، وأنزلت لتحصن دماء الناس وأموالهم، إلَّا بحقِّها... ولم تأتِ لتنشر الرعب، والشكَّ، والظلم، كما يروق لبعض الجهلة أن يسِم الإسلام به، وبخاصَّة بعض الجهلة المنتمين إلى الإسلام، فاستحلَّ القتل باسم المذهبية، وباسم الطائفية، ولأغراض دنيوية، ولمقاصد بعيدة عن الشرع... فسلم الكافر، وخاف المؤمن... ولو حسبنا اليوم ضحايا الإرهاب، الذي صنعه الغرب، وأغرى به بعض أبناء الإسلام، لوجدنا أنَّ المسلمين أكثر تضرراً به من غيرهم، وأنَّ المشركين يقلقهم الدين المعتدل، الذي يحمل رايته علماءُ أجلاء...

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة رقم ١٠٦٤، صحيح البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٠٩٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة رقم ١٠٦٤، صحيح البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٠٩٤.

ثم إنَّ من قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" خالصاً من قلبه، فقد استحقَّ شفاعة المصطفى، بشروط الشفاعة التي وردت في كتاب الله تعالى... وما كان لمؤمن يقول: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" خالصاً مخلصاً، ثم بعد ذلك ينتهك الحرمات، أو يجترح السيئات، أو يترك الطاعات... فإنَّ إخلاصه بـ "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" محرِّك له إلى جميع المبرَّات، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٩٨/٥]، ثم أتبعه سبحانه بثمرة هذا الإخلاص، وبنتيجة تلك الحنيفية، فقال: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٩٨/٥]...

فهما أمران متلازمان: الشهادة بإخلاص، والعمل الصالح... فمن شهد لله بالوحدانية كان يقيناً عامِلاً ومطيعاً ومتقياً... أمَّا من هجر التقوى، وترك الطاعات، واقترف السيئات، ولم يَتُب، فهو إلى عدم الإخلاص أقرب، وشهادته لله بالوحدانية لم تكتمل... ولكنه، مع ذلك، يحصن نفسه ودمه وعرضه، بينه وبين العباد.

عن أبي هريرة أنه قال: «قيل: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟»، قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ، أوَّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث»، ثمَّ أردف مجيباً: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله خالصاً من قلبه»(١).

ثم إنَّ أفضل الذكر على الإطلاق: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، وهي أفضل ما قال النبي عليه السلام، وما قال النبيون من قبله، ففي حديث: «أفضل الذكر لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»(٢).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، رقم ٦٢٠١، ومسند أحمد رقم ٨٦٤١.
(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم ٣٣٨٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب، رقم ٣٨٠٠.

ولذا فقد ورد في الحديث جملة من الجوائز التي ينالها من يديم الذكر، ومن يداوم على أفضله: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، فهي منحة من الله تعالى كبرى، لا يعلمها إلَّا من رزقها، ورزق الذكر، فإنَّه يجد حلاوة الإيمان في قلبه، وتنشط أعضاؤه للعبادة، وتنقبض نفسه عن المعاصي.. ففي حديث قال رسول الله ﷺ: «من قال لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير، في يوم مئة مرَّة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك، حتى يمسي»(١).

فها قد حصن نفسه من الشيطان ذلك اليوم، ثم إذا قاله في المساء حصن نفسه منه، وهكذا يدوم الحصن عليه، ويكثر شكره وفكره...

وقد قال عليه السلام بعد ذلك، مبيناً فضل لَا إِلَهَ إِلَّا الله: «ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلَّا أحد عمل أكثر من ذلك»(٢).

بل إنَّ من يذكر الله تعالى، فإنه يخاطب سميعاً بصيراً، فلا يظنَّن أنَّه يلقي الكلام في البيداء، أو أنه يخاطب إنساناً قد يسمع بعض الكلام وقد يفوته الكثير، فليس بين ذكرك الله وبين استجابته سوى الفاء الفورية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦]، بل أقلَّ من الفاء، في زمن لا يقدر الإنسان على عدِّه صغراً وقصراً ...﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠]، وتكاد الاستجابة تسبق دعاء المؤمن، فبمجرد أن يفكر في الدعاء، فإنَّ الله تعالى قد هداه للاستجابة؛ ولذا ورد في الأثر: «من رزق الدعاء فقد رزق الاستجابة».

ففي حوار طريف، ينشرح القلب لقراءته، يخبرنا رسول الرحمة عن حوار يدور بين ذاكر وربِّه، فيقول:

---

(١) موطأ مالك، كتاب القرآن، رقم ٤٨٦. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم ٣١١٩. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم ٣٤٦٨. صحيح مسلم، كِتَاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٢٦٩١.

(٢) م. س.

«من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، والله أكبر. صدَّقه ربُّه فقال: لَا إِلَهَ إِلَّا أنا وأنا أكبر».

«وإذا قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده، قال يقول الله: لَا إِلَهَ إِلَّا أنا وحدي».

«وإذا قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له، قال الله: لَا إِلَهَ إِلَّا أنا وحدي لا شريك لي».

«وإذا قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، له الملك وله الحمد. قال الله: لَا إِلَهَ إِلَّا أنا لي الملك ولي الحمد».

«وإذا قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله. قال: لَا إِلَهَ إِلَّا أنا، ولا حول ولا قوة إلَّا بي».

وكان عليه السلام يقول: «من قالها في مرضه، ثم مات، لم تطعمه النار»[1]. ذلك أنَّ من قالها في مرضه، ولم يحضره الموت بعد، فإنَّ توبته تتحسَّن، وقلبه يرقُّ، وتنشط أعضاؤه للاستغفار والإنابة إلى الله تعالى... فإذا مات وقد تاب، كانت الجنة مأواه، وكان أبعد ما يكون عن النار.

هذه ومضات من حياة قلب رطب بذكر الله، ذاكر شاكر لله، لا يغادر "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" طرفة عين، ولا تغادر لسانه ساعة من نهار أو ليل ...

فعلى المسلم أن يقتفي أثر الرسول الكريم، الذي هو اللحظة يرفل في نعيم مقيم، وقد لقي ربَّه، وهو بجواره وقد رحمه يقيناً... وما ذلك إلَّا لأنَّه لازم "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" معنى، ومبنى... فلازم أسسها وثمارها... ولم يفصل بين قول وعمل، ولا بين ذكر وشكر... ثم إنَّه حرص على تبليغها كما أمره الله تعالى، فبلّغ وأحسن التبليغ... ﷺ تسليماً.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم ٣٤٣٠.

لَا إِلَهَ إِلَّا الله
حقيقة المعرفة وأصل الوجود

كنت منتشياً مسروراً، أقلّب صفحات "بذور الرشد" في شبكة العنكبوت بنشوة العابد وروح الجندي، أصوغ "أسئلة وإشكالات" تارة، وأستنبط "القواعد الكلية" تارة، ثم أصِل الفكرة بالواقع "تشغيلاً وتفعيلاً" تارة أخرى؛ كأني في الحضرة القدسية أستمع وأنصت لسيد الأنام محمد ﷺ وهو يترنم بالقرآن غضّاً طريّاً، ينساب زُلالاً سلسبيلاً من شفتيه المباركتين، جميع ما حولي ومن حولي في عداد اللاشعور... لم يبق من "الوجود" في أعماق "وجداني" إلا "كلام الله الحكيم"، بل ما بقي شيء يُذكر إلا "هو" سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٢٨/٨٨]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٢٧].

مع بدايات سورة طه جلستُ صُبحاً، أحفِر حفراً خفيفاً رفيقاً، منقِّباً عن "القواعد الكلية" لفقه الحضارة المصوغة في "القرآن الكريم"، مما يعالج "سؤال الأزمة" المحوري في "نموذج الرشد": "حركية الفكر والفعل"؛ وانتهيت في الآيات والسطور الأولى من السورة الطيبة إلى قوله جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٢٠/٨].

جمدت أوصالي، اغرورقت عيناي، تباطأ تنفسي، تشنَّج مخّي، سَرَت قشعريرة في عروقي... ثم سألت نفسي متعلِّماً لا مجادلاً، ولقد كان صوت الأذان العثماني يصدح من كل مكان حولي: "أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله... لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، سألت هذه النفس بين جنبيَّ:

هل هذه قاعدة كلية؟ وبأي اعتبار أسجّلها على أنها كذلك؟ لعلَّها من قبيل المسلَّمات والبديهيات العقلية؟ أو لعلَّها تصنَّف ضمن المبادئ والعقائد؟ أو أن لها اسماً وتصنيفاً آخر غير الذي اعتدناه في سياق الدرس الحضاري؟

أسئلة تنزل عليّ متلاحقة كأنها الغيث وابلاً، غير أنها قبل أن تجد الجواب العقلي المعرفي الإدراكي، اقتحمت صور القلب والروح والوجدان، فعملت عمل المبيد لكل الشوائب النفسية، ثم عملت عمل المعطّر لجنبات الدار غرفة غرفة، متراً متراً، شبراً شبراً. فلم تغادر هذه النفحات سويداء قلبي، وما كان لها أن تغادر، إلا وقد أفاضت عليّ من "عوارف المعارف" ما لا يقدر اللسان ولا القلم على وصفه، بله تفسيره وشرحه.

ثم جاء دور العقل ليبحث عن "العلاقة" بين "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" والوجودِ من حوله، بل و"الوجودِ" في مخيِّلته وذهنه وجهة الأزل من هنالك، نحو الأبد إلى هنالك، ثم انتقل منها إلى سبر حقيقة "العلاقة" بين "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" و"المعرفة" بجميع أنواعها وأشكالها، ومواضيعها ومناهجها، البارحة واليوم وغداً، من يوم أشغل آدم عليه السلام عقله إلى يوم تموت فيه آخر "فكرة" في عقل إنسان: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٣٦/٤٨-٥٠].

غير أن بداية المشوار كانت مع القرآن الكريم نفسه، باعتباره "وجوداً ومعرفة"، أو إن شئت فقل "هو وجود بلباس المعرفة" و"هي معرفة بروح الوجود". فتتبَّعت "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" "لفظاً ومعنى" في آياته المباركات، ولم أتلُ آية واحدة من فاتحة كلام الله إلى خاتمته، خلت من علاقة بـ"لا إله الله": "تصريحاً" أو "تلميحاً"، "استلزاماً" أو "اقتضاء"، "علاقة سببية" أو "شرطية" أو "تراتبية" أو "تلازمية" إلى غيرها من العلاقات التي لا حصر لها، وهي تتجاوز حدود المنظَّر له في "منطق اللغة" وفي "لغة المنطق"، إلى "ما لا يدرك" من "منطق الوجود والحقيقة".

خُذ أيَّ آية تريد وأيَّ سورة تشاء وأيَّ مقطع تقترح، ثم اسأل: ما "علاقة" ما أنا بصدده بـ"لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟" تجد أمامك جيشاً من الحقائق

التي لا تخطئها إلا العين المصرَّة على العمى، والأذن المصمِّمة على الصّمم، والعقل الذي توقّف عن أداء مهمّته الفطرية، والقلب الذي لا يفقه به صاحبه شيئاً.

ولقد تتبعت ما ورد لفظاً وعبارةً بصيغة "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" في كتاب الله العزيز، فوجدت أنه يفسِّر العلم والعمل، ويحرِّك الفكر والفعل؛ ولقد ارتبط بجميع سياقات الخلق والوجود، من الأزل إلى الأبد، عالم الشهادة وعالم الغيب:

ارتبط بصفات الله سبحانه الإلهِ الواحد، الرحمن الرحيم: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٦٣].

وبحياة الله تعالى الذاتية، وبقيوميته ومُلكه وعلمه جلّ مقامه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وبالتصوير في الأرحام وأسباب الخلق، وطلاقة مشيئته وإرادته تعالى، ثم بعزته وحكمه وحكمته سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/٦].

وبحقيقة شهادة الله عن نفسه وهو العليم، وشهادة ملائكته على إثره، ثم شهادة أولي العلم الذين لم يغلفوا أسماعهم وقلوبهم بغشاوة الظلم والغرور: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٨].

و"لَاإِلَهَ إِلَّا الله" هي التفسير الوحيد لشرعية القيامة، ذلك أنه تعالى هو أصدق الصادقين، وكلامه أصدق الكلام: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٤/٨٧]. ولو أن خبر القيامة ورد من غير هذه السبيل، لما كان أهلاً أن يلتفت إليه، ولكن أنى ذلك؟

و "لَاإِلَهَ إِلَّا الله" تهديد مباشر لمن أنكرها وتعلّق بالتثليث، وفيها توعّد لمن تمادىٰ في الكفر وقول الزور: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٧٣].

وإذا ما سألت: "من خلق الخلق؟"، ثم سألت: "من هو أهل لأن يُعبد؟"، ثم سألت: "من الوكيل على أشياء الوجود كلّها إنسها وجنّها، حيوانها ونباتها، ومادتها، وكل ما يعلمه العقل أو لا يعلمه من الأعراض والجواهر؟". إن أنت سألت هذه الأسئلة في صفاء ذهن، بنيّة الإيمان والعمل الصالح لا لغرض الحفظ المجرد أو المماراة والمباهاة، فستجد الجواب في: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٢].

ولقد يخصّ الخطاب سيّد المرسلين؛ محمداً عليه الصلاة والسلام، ثم يعمّم على من اقتفى أثره واتبع نهجه، فتأتي "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" مثبّتة على الحق، داعمة في مواجهة الشرك والإعراض عن المشركين: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٦].

وإذا ما تحيَّر الناس في صدق الوحي، وفي أحقيَّة النبوَّة والنبي، وفي البحث عن مساحة رسالة النبي الأُمي ﷺ أهي لقومه وبني جلدته وكفى؟ أم هي للناس كافة وللبشر جميعاً؟ وإذا ما تفنّنوا في الاستدلال على صدق الرسالة بصدق الرسول ﷺ وابتغوا إيمانهم تبعاً لإيمانه، فإن الآية تأتي ناصعة صداحة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

ولقد يُعرض الكثيرون، وقد يتولَّون عن الإنصات لداعي التوحيد والهداية، هنا يأتي دور الاحتساب والتوكل على الله وحده: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ

حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٩].

ومن عجائب تاريخ الأمم والنبوّات، وتاريخ المترَفين والطُّغاة، أنَّ الواحد منهم إذا تحقَّق من الهلاك ورآه رأي العين، عاد إلى المرتكز، وفهم ساعتها معنى الوجود ومعنى الحياة بعد فوات الأوان؛ فهذا فرعون قالها ناقصة غير مكتملة، قالها فلم تنفعه، لأنه لم يتلفظ بها مؤمناً وإنما مخادعاً جاحداً كعادته: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٠]. ولقد أجيب بصريح العبارة: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩١].

وجميعُ الرسل بلا استثناء، من لدن آدم عليه السلام إلى خير البرية محمد عليه الصلاة والسلام، جميعُهم حام حول حمى "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، ودندن حولها، فلم يحدث أن دعا واحد منهم - مهما علا شأنه - إلى نفسه، أو إلى مخلوق غيره، كل الأنبياء بلا استثناء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٥].

ومثال ذلك "ذو النون" يونس عليه السلام، الذي التقمه الحوت وهو مليم، ولولا "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" تسبيحاً واستغفاراً للبث في بطنه إلى يوم يبعثون: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧]، ولقد جاءت الاستجابة عاجلة، وجاء معها وعد من الله تعالى - هدية من السماء - أن من قالها مؤمناً موقناً محتسباً، في أيِّ ظلمة كان؛ مادية أو معنوية، ظلمة الجهل، أو ظلمة الشهوة، أو ظلمة الهمّ، أو ظلمة الظلم، أو ظلمة الفتنة... من يقلها بشروطها وأركانها، ينجّه الله تعالى وعداً منه، والله لا يخلف وعده، غير أن تكرارها باللسان باردة لا يغيّر من الواقع شيئاً: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٨].

و"لَا إِلَهَ إِلَّا الله" تلخّص صفات الله الكمالية صفة صفة، وتنفي عنه ما لا يجوز في حقّه، وتعلو بالذكر إلى مقام "الإجابة" ثمرة لمقام "الاستجابة": ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٢-٢٣].

ما دام الأمر ما ذُكر، وما دام الحق مشكاته "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، وما دامت دنيا اليوم تجرع المسلمين كؤوس الذُّل والهزيمة والخذلان مريرة حنظلاً غُصصاً.. ما دام الحال هكذا، فإن العودة الكاملة بالمنهج الكامل واليقين الحقيق والإيمان الصادق، إلى حصن "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، بات إجراءً مستعجلاً عاجلاً، فأيّ تباطؤ أو تلكؤ، سيطيل عمر الأزمة والمحنة إلى أمد: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن: ٦٤/١٣]؛ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٧٣/٩].

على الله توكلنا، حسبنا الله ونعم الوكيل.

أليست "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" بهذه الأبعاد، وبغيرها مما لم يسعه المقال ولن يسعه أي مقال لحقيقة ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٧]، أليست هي "أم القواعد الكلية" لفقه الحضارة؛ بل لفقه الوجود، ولفقه المعرفة، ولأي فقه آخر مما نفقه ومما لا نفقه؟ ولذا صح أن نطلق عليها صفة "أم القواعد" دون تخصيص ولا تقييد. فـ"لَاإِلَهَ إِلَّا الله" لا تقتصر على جانب دون آخر من مكونات الحياة ومقدراتها، ولا هي خاصة بفنٍّ دون آخر، فلا هي قاعدة عقدية وكفى، ولا هي قاعدة فقهية فقط، ولا هي قاعدة حضارية ليس إلا، إنما هي قاعدة القواعد، وأصل القواعد، وأس القواعد: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٢].

ألقيت سمعي برهة وإذا بي أسمع ما حولي يردِّد منشداً سيمفونية "لَا إِلَهَ إِلَّا الله": تُميرات على الطاولة، كأس ماءٍ بما حوى، ساعة اليد حول معصمي، قلمي الأزرق المزركش، أثاث الصالون الأرجواني، أشعَّة الشمس المتسللة إلى مقعدي، محمل المصحف الخشبي... أحشائي ودقَّات قلبي... السماء الزرقاء من فوقي، طائر النورس بعيداً يباهي السحب المفرَّقة اللطيفة.

هو مهرجان للتهليل والتسبيح، لم أشهد له مثيلاً من قبل، لا حرم الله منه مسلماً.

فما كان مني إلا أن نويت وسعيت، ثم التحقت بالركب مترنماً: "لَا إِلَهَ إِلَّا أنت سبحانك، لَا إِلَهَ إِلَّا أنت سبحانك، لَا إِلَهَ إِلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

من قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" دخل الجنَّة

صدقتَ يا رسول الله صلى الله عليك وسلَّم، بهذا أؤمن، وبهذا ألقى ربِّي... وحاشا أن أردَّ كلام نبيك وصفيك محمد، يا ربِّ...

وأقولها بملء فيَّ: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"... وأعتقد جازماً أنَّ «من قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" دخل الجنَّة، وإن زنى، وإن سرق»...

لكن، كيف أفهمها؟

وما معناها؟

ما أبلغك يا رسول الله، فإنك ربطت بين مقدِّمة ونتيجة من المستحيل أن يتخلَّفا، على شاكلة ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٠].

فمن قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" موقناً بها، معتقداً معناها، مدركاً مداها، فإنه يعلم يقيناً أنَّ الله الذي لا آمِر سواه، ولا ناهي سواه، ولا مطاع سواه...

نهى عن الزنى وحرَّمه، ونهى عن السرقة وحرَّمها... وشدَّد الوعيد على السارق؛ فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨/٥]... وربط بين الزاني والمشرك، في قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣/٢٤]، ثم نهانا أن نشفق عليه حين إقامة الحدِّ فقال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢/٢٤].

من قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" مستحضراً هذه المعاني كيف يمكنه أن يجرؤ على الله فيعصيه، أو يجعل "شهوة المال" أو "شهوة النساء" شريكاً لله، فيطعهما ويعصيه، ويقول لشهوته: لبيكِ... ثم يقول لربِّه: سأعصيك في هذه، وأرجو رحمتك بعدها!

إنَّ هذا مستحيل؛ ولذا إذا أردتَ أن تجتنب المعاصي، فقل: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"... موقناً، معتقداً، مؤمناً... فإنك قد أتيت الأمر من بابه، وصليت في المسجد من محرابه... فبشرى لك الإقلاع عن المعاصي...

ثم من قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" وقد سبق له أن زنى أو سرق، استجابة لنزوة، أو بعد فورة شهوةٍ... فإنَّ "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" بمعناها، ومدلولها تدفع بقائلها إلى التوبة النصوح، وإلى الندم الشديد، وإلى العزم على الإقلاع... فتنشطه من عقاله، ويتحوَّل إلى عبد لله مطيع، وللزنى والسرقة وجميع المعاصي مبغض... يتمنى أن لو أُلقي في النار، وعذِّب وأحرق... على أن لا يعود إلى المعصية...

فإذا كنتَ قد عصيت من قبلُ، أو إذا كنت قد اقترفت زنى أو سرقة... فاجلس إلى نفسك في خلوة، وتطهَّر، واستحضر معاني "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"، ثم ركِّز جيداً، وقل: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"... "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"... "لَا إِلَهَ إِلَّا الله"

وابحث بعقلك في مداها وأبعادها، وفي منشئها ومنتهاها، ثم تُب توبة نصوحاً، بما تقتضيه التوبة النصوح من تنصُّل عن التبعات، وعزم على عدم العود، ورد للحقوق...

ثم من معاني هذا الحديث، أنَّه قيل في بداية الإسلام، قبل أن تفرض جميع الفرائض، وقبل أن تحرَّم جميع المحرَّمات، فمن قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" ثم مات قبل ذلك، دخل الجنَّة، وهي شفيعة له عند ربِّه، وقد روي هذا المعنى عن جملة من العلماء.

❀ ❀ ❀

يا ساهر الليل... قم الليل

(مقال نموذجي لمعالجة عقدية، بمنهج جديد)[1]

الليل ليل، والويل ويل... إمَّا ظلمةٌ وكفى، أو ظلماتٌ وصدٌّ عن سبيل المصطفى...

الليل ليل، والسيل سيل... إمَّا يَسقيك ماء عذباً زلالاً، أو يجرفك فتهلك دنيا وأخرى...

فيا ساهر الليل، وبين عينيك شاشة عريضة (التلفزيون أو الكمبيوتر)...

ويا ساهر الليل، وأمام ناظريك شاشة صغيرة (المحمول أو الهاتف أو لعبة إلكترونية)...

وحول كلٍّ ذلك اتصال مباشر أو غير مباشر، بعفاريت الأرض

---

(١) يعالج المقال مواضيع عقدية بأسلوب ملائم للغة الشباب، أبرزها:
١- إرادة العبد، وحرية الاختيار.
٢- التفكر في خلق الله، وفي المصير، وفي النفس.
٣- الانتصار للحق والإيمان.
٤- تربص الشيطان والكفار بالمؤمن.
٥- غيرة الله تعالى على المحارم، وحبه لعباده، ورحمته بهم.
٦- النهي عن اليأس والقنوط.
٧- وجوب المسارعة إلى التوبة.
٨- وجوب الستر حين الابتلاء.
٩- لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.
١٠- تبغيض المعصية وتحبيب الطاعة.
يسأل طالب العلم قراءة المقال، واستنباط هذه المعاني، ثم التوسع فيها مع الأستاذ الموجه، من خلال مصادر في التفسير، والحديث، والعقيدة؛ على صيغة بحوث وقراءات مفتوحة.

وشياطينها؛ وقد سهروا في طبخ ما تأكل، وفي تزويق ما تلبس، وفي تجميل ما تشاهد، وفي زرع أشواك من فلسفات اللذة، والعبثية، والانحلال... مصيدةً لك، نُصبت - بخبث واحتراف- شِباكها لجوف الليل، أو حتى لحين ترمض الفصال وقت الضحى...

مثل ذبابٍ يحوم حول النار فتحرقه، أو ينجو من لظاها فتكون برداً وسلاماً عليه...

مثلَ مربوطٍ بعنقه إلى مشنقة، إمَّا أن يُقطع رأسُه، أو يَقطع الحبلَ بعزم، فيحيا حياة طيبة لا غبار عليه...

❁ ❁ ❁

فيا ساهر الليل تفكَّر، وتروَّ، وأعمل قلبك وعقلك وضميرك؛ لتنجو وينجو من معك... ولا تكن خفيف العقل، ميِّت القلب، بليد الضمير... فتهلك وتُهلك مَن دونك ومن خلفك...

إنَّ نصرة الحق والدين تبدأ من ساعة تخلو فيها بنفسك، فإن أنت انتصرتَ على هواك ترشَّحت للمهامِّ الكبرى، وإن أنت انهزمت وتردَّيت وتلطخت... فلم تسارع إلى الكرِّ والوقوف والتطهر... إن أنت كنت كذلك، فالرجاء في قطع المسافات يتضاءل وينطفئ... رويداً رويداً...

فيا ساهر الليل، لا تستسلم، ولا تلق بالمنشفة البيضاء على حلبة صراع القيَم؛ واعلم أنَّ ربَّك يَغار عليك، وهو بك رحيم، وقد عافاك وسترك، فلم يفضحك أمام الخلائق، ولقد نهاك عن فضح نفسك... ففي الحديث الصحيح: «**إنَّ الله تعالى يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه**»(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في الغيرة، رقم ١١٦٨، وصحيح البخاري، كتاب النكاح، رقم ٤٩٢٥، وصحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم ٢٧٦١.

ويا ساهر الليل، لك ربٌّ رحيمٌ بك، عفوٌّ عليك، عطوف... بسَط يديه لك فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٣]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٢٤/٣١]... لك ربٌّ يقول للسماوات والأرض، وللجبال والبحار، وقد ضجرت من معاصيك فاستأذنت ربها أن تهلكك، يقول لها:

«دعوني وعبادي.. لو خلقتموهم لرحمتموهم.. إن تابوا إلي فأنا حبيبهم.. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم»...

فيا ساهر الليل، لا تشكُ ليلك لأحد من الخلق... اقصِد بابه سبحانه... واسأله موقناً، وجِلاً، مستسلماً...:

"يا غفار، يا تواب، يا حبيب، ويا طبيب... قوّني بالطاعة، وأبعد عني أسباب المعصية، وكن معي، واحفظني، واملأ قلبي صفاء ويقيناً وإيماناً... فأنا عبدك وأنت ربي... أنا المحتاج وأنت الكافي... أنا المريض وأنت الشافي... أنا الضّال وأنت الهادي... أنا الداعي وأنت المستجيب...اللهم أنت ربي وأنا عبدك".

❁ ❁ ❁

يا ساهر الليل، تأمل معي هذا الحديث الجميل، الرائع، البديع... ففيه جرعات من الأمل، يستتبع العمل:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسَّها (آتيها)، وأنا هذا فاقضِ فيما شئت، قال: فقال عمر: **"لقد سترك الله لو سترت نفسك"**... فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً ودعاه، فتلا عليه الرسول عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١/١١٤].

فقال رجلٌ: يا رسول الله، هذا له خاصة؟ قال: **«لا، بل للناس كافة»...**

فيا ساهر الليل أبشر، واستغفر، فالآية تصدق فيك وفي غيرك...:

فاستر ولا تفضح..

واكتم ولا تشهِّر..

واندم ولا تيأس..

وتُب ولا تسوِّف..

وأحسِن الظن بالله ولا تقنط..

ويا ساهر الليل "قم الليل"... فإن فعلت فقد محا الله صفحتك، وفتح لك أبواب الجنان ترتع منها كما تشاء، وجنَّد لك أهل السماء يستغفرون لك، ويسبِّحون معك... ولقد صار ليلك مولوداً جديداً، وبستاناً يزهو بالزهر وبالورد والياسمين... فارتع فيه كما تشاء...

فيا ساهر الليل: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٦].

❀ ❀ ❀

الطفل والمدينة

(مقال في العقيدة، يعالج: الخَلق، والحرية، وخاصية الخلود)

فكرةٌ نزلت - مثل قطرة ماءٍ - على سفوح عقلي العطشَى، فغمرتها سقياً وريّاً؛ واهتزَّت لها تربة قلبي الجدباء، فربَت وأنبتت ما كان مِن قبلُ عدماً في عالم الملكوت؛ ليصير بعد حين حقيقة ماثلة، وجوهراً حاضراً...

أن أتجوَّل في شوارع المدينة باحثاً عن "سبب كلِّ شيء"، لأربط بحبل مِن علاقة بين الأسباب ومسبباتها، فحملتُ زادي، ومشيت بعيداً... بعيداً... إلى أن وصلت...

* * *

دخلتُ من البابِ الشرقيِّ للمدينة، فيمَّمت وجهي نحو حافلةٍ في محطة، وركبتُها... ثم سألت السائق بهدوء: مَن صنع هذه القطعة المتحرِّكة من الحديد؟

فأجاب باختصار، وقال: لا أعرفه، ولكن أعرف أنَّه عالِم مبدِع في الميكانيكا، وفي فيزياء المواد والحركة...

ثم قصدتُ ناطحةَ سحابٍ تقع وسط البلد، مثل عروس ممشوقة القوام، وسألت بوابها: من صانع هذا الجبل المشذَّب من كلِّ جانب، الشامخ الفاره؟

فقال: لا أعرفه، ولكن أعرف يقيناً هو صاحب علم غزير في الهندسة، وفي قوانين الفيزياء...

* * *

غادرت المدينة، وقد سألت أكثر من فيها، عن أكثر ما فيها: سألتُ عن الشوارع، وعن البنوك، ومحلات البيع، والمصانع، والأنفاق... وكان الجواب هو نفسه كلَّ مرة: لا أعرف، ولكن هو...

غادرت المدينة، وغبتُ عنها ألف عام كاملة، ثم عدت على قدَر لأستكمل مهمَّة البحث مرَّة أخرى؛ فسألتُ عن الحافلة، والعمارة، والمصنع، والنفق... وغيرها...

❁ ❁ ❁

لم أجد الحافلة، ولا حتى ما يشبهها، كلُّ شيء قد تغيَّر وتبدَّل، قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً؛ أمَّا وظيفة الانتقال مِن مكان إلى مكان، فقد بقيت هي هي.. وأمَّا وسائل الانتقال، فلا شيء منها بقي على حاله... كما كان قبل ألف عام...

وبحثت عن العمارة، فقلتُ: لعلَّها تختلف عن الحافلة كونها لا تغادر المكان؛ إلَّا أنني لم أجدها، لا هي ولا المكان؛ فلم أهتدِ إلى موضعها السابق؛ مَن يدر لعلها صارت تتحركُ مثل وسائل النقل؟ فخاب ظنيَ في الاهتداء إلى الناطحة ذاتها؛ لكنَّ وظيفة السكن، وإيواء الناس إلى بيوتهم، بقيت هي هي، كما عهدتُها منذ ألف عام... لم تتبدَّل ولم تتغير...

❁ ❁ ❁

فجأةً، تذكَّرتُ أني في زيارتي الأولى، قبل ألف عام، كنتُ قد التقيت بطفلٍ يافعٍ في الخامسة من عمره، يلعب في حديقة غنَّاء مع أترابه، كأنهم الحمام حول الأيك؛ فسألته: عن اسمه، وعائلته، وأحاسيسه، وبعضِ قناعاته ودعاباته... فأجابني بذكاء فائق، وبلاغة غير معهودة...

قلت، وقد عدتُ: لعلِّي أجد هذا الطفل، ولعلَّه مثل فتية الكهف، لم يمرَّ عليه نهر الزمن، فلم يشِخ ولم يمُت... لكنَّني، لم أجد الحديقة ذاتها، فقصدتُ أقرب حديقة مني، وإذا فيها ثلَّة من الأطفال يلعبون ويمرحون،

يضحكون ويبكون... قلتُ في نفسي: لم يتغيَّر اللعب ولا المرح، ولا الضحك ولا البكاء ...

ثم بحثت عن ذلك الطفل الذي لم تغادر صورته مخيِّلَتي، رغم طول الوقت... فلم ألفِه بينهم، بلحمه وعظمه؛ لكنَّ جميع الأطفال كانوا شبهاً له، لا شيء تغيَّر فيهم: فلا رأس أكبر من العنق، ولا يد غيَّرت مكانها، ولا عين حوَّرت وظيفتها...

❁ ❁ ❁

ثم سافرتُ ثانية، وغبت الغيبة الطويلة... ابتعدت فيها عن جغرافية الأرض، وعن محيط بني البشر... وعدت مرَّة أخرى، بعد مليون عام، فكانت النتيجة نفسها: عالَم الأشياء كلُّه تطوَّر، وعالَم الإنسان صمَد على شكله، وصورته...

الجسم، والقوام، والنبرات، والملامح هي هي... كذا الأعراض، والعواطف، والملامح، ونوازع الحبِّ والبغض، والخير والشر... جميعُها هي هي... لا شيء طرأ عليها...

❁ ❁ ❁

سألت حائراً نفسي، مرَّات ومرَّات، عن الفرق بين الحافلة والعمارة والطفل؟

ما الذي جعل الأوليان يتغيَّران، وجعل الثالثَ يصمُد؟

هل يمكن للعقل وحده أن يفسِّر هذا الفارق بعلم يقين؟

وهل ثمة أدلة مقنعة على ذلك؟

للجواب عن السؤال، اهتديتُ إلى ثلاث عبارات، جمعتها في عبارة واحدة، جاء فيها:

"الله والحرية لا ينفصلان... فإذا سلَّمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، فإننا بذلك نعترف بوجود الله، إما ضمناً، أو صراحة... والله وحده هو القادر أن يخلق مخلوقاً حرّاً، فالحرية لا يمكن أن توجد إلّا بفعل الخلق"[١].

ثم، أحسست بصوت ينبعث من عالمي الجواني، وأنا أقرأ لعلي عزت قوله:

"إنَّ الله لا ينتِج ولا يشيِّد، إنَّ الله يخلق"[٢].

* * *

رحتُ أستعرض جملة من الأسئلة تكملة للفهم:

ألم تكن الحرية فارقاً بين آدم عليه السلام، قبل الامتحان، وأبينا آدم عليه السلام، بعد الامتحان؟

أَوَلم تكن فرقاً جوهرياً بينه وبين الملائكة حين أسجِدوا له؟

ألم يعترضوا على الحرية ذاتها، التي قد تحمله على الإفساد في الأرض، وسفك الدماء؟

أليست الحرية هي الحدَّ الفاصلَ بين "الإلهي" و"الإنساني"؟

وهل يمكن لإنسان أن يصنع شيئاً (ماكينة، عمارة، آلة...) أو أي شيء آخر، له حرية الاختيار؟

* * *

حافلة مدينتنا، ليس لها الحرية في أن تسير أو تتعطَّل، وليس لها الحرية

---

(١) ينظر: علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، مؤسسة بافاريا، ط٢، ١٩٩٧، ص٨٣.

(٢) م. س.

أن تختار مَن تحمل ومن لا تحمل، ولا أن تتمرَّد أو تحتج على مالكها... والعمارة، كذلك، لا حرية لها في قبول السكّان أو رفضهم، في أن تكون هنا أو هنالك، في أن تؤدي مهمتها أو تضرب عنها...

لذلك فقط تتهالك الحافلة، وتتقادم العمارة، شكلاً ومضموناً... إنها لا تحمل وجهاً ميمّماً شطر السماء؛ هي أرضية بكلِّ ما فيها...

أمَّا الإنسان (الطفلُ هنا) فهو يختار في كلِّ شيء، وقد مُنحت له الحرية:

أن يقول: نعم، أو يقول: لا.

أن يتقدم أو يتأخر..

أن يطيع أو يعصي..

أن ينشط أو يحرن..

أن ينساق أو يتمرد..

هو حرٌّ؛ وحريته نفَس ربَّاني فيه، نزل عليه من السماء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ٦٦/١٢]... حرية الإنسان ليست مكوِّناً أرضياً ترابياً (مثل لحمه وعظمه)... حرية الإنسان، هي فوق التراب، وأكثر من الترابي...

* * *

ولذا، فما دام الله تعالى له صفة الخلود (من ذاته سبحانه)، فهو بفضلٍ منه وهب الإنسان صفحة الخلود (من غيره).. فالإنسان لا يختار أن يوجد أو لا يوجد، أن يولد أو لا يولد... ولكنه حين يوجد ويولد (أي حين يُخلق) يكون مصيره أبدياً، دائماً، خالداً... ثم، قد يتمنى أن يفنى مثل باقي الحيوانات، أو مثل التراب، فلا يُسمح له بذلك ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٧٨/٤٠].

الفرق ظاهر في نوع الحياة التي يحياها هنالك في الشوط الثاني من

وجوده: أي في مرحلة الخلود، والحرية، والهبة الربانية التي بدونها لا معنى للاختيار...

❀ ❀ ❀

المدرسة (والجامعة، والدولة، والمجتمع...) حين تقتل الحرية في الإنسان، هي بالضرورة تعتدي على الجانب العلويِّ فيه، تغتال أعظم هبة، وتكفر أكبر نعمة، وتظلم أقدس مظهر من مظاهر إنسانيته:

الحرية... التي بها يتوجه نحو السماء، نحو الأبد، نحو الخلود...

والدرس العقدي إذا لم يجعل الحرية محوراً معرفياً وحقيقة وجودية، انحرف بزاوية واسعة عن مصدره (القرآن الكريم)، ومقصده (سعادة الإنسان)؛ ذلك أنَّ العقيدة والعبودية ضدَّان لا يلتقيان؛ فمن لم يكن موحِّداً لله كان عبداً لغيره؛ ومن لم يلتفت نحو السماء أخلد إلى الأرض، ومن لم يتعلق بالله تعالى حبّاً تعلق بغيره هوى، ومن لم يسجد للذي وهبه الحرية خنع لمن يسلب منه إنسانيته...

ليست مشكلة العالم اليوم، شرقِه وغربِه، سوى تلك الأسطورة التي قتلت الإنسان، حين اغتالت فيه حريته، واستعبدته بخبث ومكر وكيد؛ وليست مشكلة البلاد الإسلامية سوى تلك الغفلة التي جعلت بعضهم يؤلِّه باسم الحاكم، أو الأمير، أو الوصي (آلهة من الحلوى)، وجعلت البعض الآخر يؤلِّه غيره باسم الحاجة، أو الجهل، أو التبعية الحزبية والإيديولوجية...

❀ ❀ ❀

متى تخلف المسلمون؟!

جدلية الجوهر والعرض والمنهج

حين أوغل المسلمون في الجدل حول جوهر الأشياء، وذاتها، وماهيتها؛ ولم يستثنوا من ذلك حتى "ذاتَ الله تعالى"، وحقيقة الغيب؛ وحين توهموا واشتغلوا بمحاولة تغيير جوهر التراب ليكون ذهباً فيما سمي بـ "حجَر الفلاسفة"، الذي يمكنه في زعمهم أن "يحيل المعادن الرخيصة ذهباً، ويهب للأشياء الخلود"؛ حينها توقَّف عقلهم عن النفاذ إلى ما هو أعلى وأسمى.

ويوم لم يشتغل المسلمون بعرَض الأشياء، وبما يطرأ عليها، وما يزول أو يتحوَّل فيها؛ مما يمكن التدخُّل فيه والتأثير فيه؛ يومَها فقدوا الصلة بالعلم، بل وحتى بالإيمان، وارتبطوا أكثر بالإيديولوجيات والخرافات والأوهام.

أمَّا المنهج فهو العلاقة، والطريقة، والوسيلة، والأسلوب... الذي به يتعامل الإنسان مع أعراض الأشياء؛ وبواسطته يمارس التأثير في فعالية الأشياء، وفي هدفيتها، وفي وظيفتها؛ وبذلك يكون المنهج هو محلَّ الاجتهاد، ومحل إعمال العقل؛ فإذا ما مات المنهج أو مرِض جاءت على إثره النتائج ميِّتة مريضة؛ ولم يشفع لها بعد ذلك أنَّ الأساس صحيحٌ، ذلك أنَّ الصحة لا تعني الفعالية بالضرورة.

لكن للأسف، مِن الناس من يخلط بين الصحَّة والصلاحية، بين الكفاءة والفعالية؛ ويعتقد أنه ما دامت الفكرة صحيحةً فهي بالضرورة صالحة؛ وأنها ما دامت كفأة فهي بالضرورة فعَّالة؛ لكن القرآن الكريم في بيانه الحكيم

يعلِّمنا أنه ليس أصحّ ولا أكفى مِن كلام الله تعالى، هذا جوهره وهذه حقيقته؛ أمَّا إذا أسقطت الفكرة القرآنية على خطِّ الزمن، ونيط بالإنسان دورٌ ومسؤولية في صلاحيتها وفعاليتها، فهنا قد يتغيَّر الأمر، وقد يظهر الخلل؛ يقول سبحانه عن كلامه الحكيم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢/٢٦]؛ لكن سبب الضلالة والهداية ليس هو "جوهر القرآن وذات القرآن" حاشا ثم حاشا؛ وإنما هو نية الإنسان وفكره وفعله ومدى اجتهاده: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ، ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/٢٦-٢٧].

لو لم يتجادل المسلمون حول "رؤية الله تعالى"، وحول "هل صفات الله هي عين ذاته"، ولو وفروا علمهم وفكرهم وجهدهم ووقتهم للإيمان والعمل وفق كون "الله تعالى يراهم"، ولو أنهم اجتهدوا في البحث عن "كيفية ومنهج" الطاعةِ، التي ترضي الله تعالى، كما أمرهم وكما أراد منهم؛ طاعةٍ تكسِبهم حبَّه وقربه ومعيته؛ لو فعلوا ذلك لَما انتهوا إلى حالة "من التكفير والتضليل"، ولا إلى تقسيم بعضهم البعض إلى "مذاهب وفِرَق وشِيَع" تتلاعن وتتقاتل؛ ثم لما آل الأمر إلى أن يكونوا في حاجاتهم اليومية تبعاً وعالة على الكفار والمشركين والملحدين... من كلِّ جنس ولون، ومن كلِّ فكر ودين.

الصدق مأمور به شرعاً، لا محالة؛ ولكن ما هو الصدق؟ وكيف نعرِّفه؟ وما أنواعه؟ وما هي ماهيته؟ وماذا قال فيه الشعراء والكتَّاب؟ وغير هذه من المباحث الثقيلة في جوهر الصدق وذاته وحقيقته؛ لا يقدم خطوة، ولا يحقق نفعاً، ولا يغير واقعاً؛ لكن لو بحثنا في علاقتنا نحن بالصدق، وفي مظاهر الصدق التي تغيِّر من حالنا، وعن المناهج التربوية التي نزرع بها خلق الصدق في الناشئة، وعن موانع الصدق التي نمارسها في إعلامنا، وسياستنا، واقتصادنا... ثم عن كيفية التخلُّص منها، وإيجاد الأساليب والمناهج العملية التي بها نجسِّد الصدق فكريّاً وحضاريّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً... لو فعلنا ذلك

بصدق، وصدَّقنا به، ونويناه، ثم عملنا بمقتضاه، مبتغين وجه الله تعالى؛ لكان حالنا أفضل مما نحن فيه، ولتغير ما بأنفسنا إلى ما يرضي الله تعالى.

ولو أننا خرجنا من الدائرة الفاسدة للتعاريف الحدية "للحركة"، و"الطاقة"، و"الآلة"، و"الوسيلة"، و"الغاية"، و"القيمة"، و"النهضة"... وما لا آخر له؛ ثم اجتهدنا في البحث عن كيفيات إحلال روح الاختراع والابتكار لوسائل الحركة، ولمحركات الطاقة، ولآلات الحاجة البشرية... لما كنا تبعاً لغيرنا في كلِّ شيء، ولا عالة على أعدائنا في كلِّ أمر.

تخلف المسلمون حين انشغلوا عن الأعراض والمناهج، وأسرفوا في التنقيب والبحث في جواهر الأمور وذواتها وحرفياتها.

والمقرر شرعاً وعقلاً أنه لا يكون الخروج من الحفرة التي وقعنا فيها، إلَّا من الجهة التي سقطنا منها.

❀ ❀ ❀

الخوف المتأرجح

بين "قانون المالية" و"الثقة في الله"

أفتح المذياع في الساعة الأولى من النهار...

أقلِّب صفحات الجرائد "الوطنية" بجميع ألوانها وأطيافها...

أتابع الأخبار ساعة بساعة على صفحات القنوات، وبين ثنايا مواقع الإنترنت...

لا همَّ، ولا شُغل، ولا حديث، ولا جعجعة... إلَّا عن "قانون المالية"، وعن "إجراءات التقشُّف"، وعن "سِعر البترول"... حتى لكأنَّ الساعة الكبرى قامت قيامتُها، أو لكأنَّ المسيح الدجَّال قد نزل بيننا...

بل، ويحذِّرنا بعض المغرضين من غدٍ أسودَ حالك، تنتهي فيه الأرزاق، وتطوى الأوراق، ويتشرَّد الناس في كلِّ مكان... فيحلُّ في ربوع الجزائر "البوم"، و"الغراب" ضيفاً ثقيلاً...

والذي يحزنني، ويمزق قلبي كمداً وغيضاً، أنَّ "اسم الله تعالى" يغيب عن برنامج المشرِّع والمشرَّع له، وأنَّ "التوكُّل على الله" بات باللغة الدارجة "خُضرَة فوق امْعَاش"، أي بات "زيادة لا لزوم إليه"، فلا حاجة إلى "عونه" سبحانه... وإنما الحاجة إلى "البترول"، و"القانون"، و"الدولار"، و"التوقيع"، و"الحزب"... وكلِّ الأسباب المباشرة؛ التي يعلم الله أننا لم نرَ منها، منذ الاستقلال إلى يوم الناس هذا، شيئاً معتبراً "يذكَر فيُشكر" ...

وإنه لولا عناية الله، ورعاية الله، وحفظ الله، ومعية الله... لخسف بنا...

يروي حبيبي رسول الله، عليه السلام، عن ربه الكريم تعالى شأنه، قوله

الصادق: «مهلاً عن الله مهلاً، فإنه لولا شيوخ ركع، وشباب خشع، وأطفال رضع، وبهائم رتع، لصبّ عليكم العذاب صبّاً»[(١)]...

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٨/٤٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٨]...

أنا لا أقلّل من شأن الميزانية وقانونها، ولكن أستنكر نسجها بخيوط واهية ضعيفة، ليس لحبل الله المتين فيها حظ؛ خيوط من "الحساب"، و"التوقع"، و"الادعاء"، و"المغالطة"، و"الحيلة"، و"الحظوة"، و"التحزب"...

وما من شكٍّ أنَّ جميع الوسائل والجهود ستكون متينة لو أنها استمدَّت قوتها من "التقوى"، ومن "خشية الله"، ومن "الخوف من الله"... ذلك أنها:

ستصبغ بصبغة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨]،

وستحاك على وقع ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ٢٠/١٣٢]،

وستفتل بفتيل ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٦٥/٢]،

وستنسج بنسيجٍ جميلٍ أخّاذ من معنى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ٤٠/١٦]...

أمَّا أن يتواطأ السياسي مع الإعلاميِّ في "ترهيب الناس" صباح مساء، وأن يُفرغ القانون من حساب "الإيمان والتوحيد والثقة في الله"... فلا، ثم لا ...

ذلك أنَّ المقنِّن والمقنَّن له "مرزوق" من الله، ولو شاء لقبض رزقه عليهم جميعاً؛ ولكن عهدُنا به سبحانه أنه لا ينظر إلّا إلى قلوب المحبين، المستسلمين، المتوكلين، الشاكرين، المخبتين، المحسنين... لا إلى أوجه المعتبَرين، المتجادلين، المتناحرين...

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، رقم ٥٨٩٨.

هو سبحانه يرزقنا، ولو شكرناه لزادنا ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧/١٤]؛ لكن لو كفرنا وأعرضنا عن شكره فسيحرمنا لا محالة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧/١٤]...

ولو أنَّ البترول صار ماء، والدولار تحول إلى ورق، ولم يكن في كيس "المالية" سوى بضعة دنانير... لو أنَّ الأمر كان كذلك؛ فإنَّ القيامة لن تقوم لذلك، وإنَّ الأمر لن يفلت من عين الله، ولا من قدرته، ولا من تدبيره... ولذا، فالمطلوب في مثل هذه الحال هو أن "نصبر"، و"نشكر"، و"نتعاون"، و"نسارع إلى الدعاء"، و"نجدَّ في العمل"، و"نزرع ثم نحصد"، و"نسعى في الأرض" ابتغاء ما عند الله، بحزم وعزم، لا يشوبه رياء ولا كبر ولا غرور ولا احتيال...

اليومَ، في تقديري، لا يخاف إلَّا مَن ألِف العيش بروح "الطفيليات" و"الأميبيا"؛ ولكن من اعتاد الكدح، والعمل الصالح، ولم يعوِّد نفسه الإسراف والتبذير، ولا السطو على أموال الناس بغير حقٍّ، ولا اجتراح السيئات والموبقات... نعَم؛ من كان أمره كذلك: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨/٢]... بل عليهم أن يستبشروا خيراً، بعودة المياه إلى مجاريها، والأمور إلى نصابها، والميزان إلى قسطه وعدله...

هذه دعوة إلى الشكر، والتوكُّل، والعودة إلى الله، والاجتهاد في كلِّ ميادين الحياة...

فهل من مستجيب؟ وهل تبلغ آذان المشرِّعين، والكتَّاب الصحفيين...؟

لا أعرف، ولكني متيقن أنها ستنفع المؤمنين ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥]،

وأنا على يقين أنَّ الله الكريم يَسمعها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾..

اللهم فاشهد..

وهمُ الاكتمال، وحبُّ التملُّك

(اللهمَّ علِّمني كيف اشكرك)

كلَّما تأمَّلتُ ظاهرة لها علاقة بالنفس البشرية، بل بنفسيتي أنا كما أدرِكُها وكما أُحاورها، أجد أنَّ الجواب الصحيح يمكن أن يُستعار من عالَم الطفولة البريء الشفاف، ثم يطبق على عالم الكبار المعقَّد، والصعبِ المِراس.

يلحُّ الطفل "فراس" على والديه لشراء لعبة جميلة بديعة، قد تكون باهظة الثمن، مستعصية على مقدّرات الأب المحدودة؛ فيركِّز الطفل على اللعبة في طلباتِه الملحة "التي لا تنتهي"، حتى تتحوَّل إلى حقٍّ مشروع، ولقد يُلحق ذلك ببعض التصرُّف المحمود، مِن مثل الاجتهاد في الدراسة، والإقلال من الأخطاء تجاه أخيه وأخته... إلى أن يلين قلب الوالدين للحلم الكبير - والأم غالباً هي مركز القرار؛ فيجمِعوا أمرهم، ويحرِموا أنفسهم من بعض الحاجات، ثم يبشِّروا الابن باليوم الموعود لاقتناء ما حلم به طويلاً.

تتسارع دقات قلب الطفل، فيختال في سعادة نشوان ولهان، كأنَّ العالم صار تحت ناظريه، أو لكأنَّه أسعد إنسان في الوجود، وقد يخلط الحلم بالمنام، فتواتيه أضغاث الأحلام جميعها تحوم حول اللعبة، وحول تفاصيلها: لونها، من يشاركه اللعب بها، أين يضعها، كيف يباهي بها عند أصدقائه في القسم، بخاصَّة صديقه "نبراس" الذي دائماً ما تفوَّق عليه في الممتلكات، وفي المتع التي تواتيه من والديه الأثرياء...

ها قد اشترت العائلة اللعبة من المتجر الكبير في المدينة (المول)؛ وها هي قد تحوَّلت إلى حقيقة ماثلة حيَّة لا غبار عليها في قرارة الصبي؛ وها قد

حقق بها المبتغى وتمتَّع بلعبته بلا حدود ولا قيود، وها قد علم جميعُ مَن حوله من أطفال العمومة، ومن أصدقاء الدراسة، ومن الصحبة في الشارع... علموا جميعاً بأمر اللعبة...

ثم تمرُّ الأيام، وتبرد "دفقة التملُّك"[1] من قلب الولهان، مثل "دفقة الماء" ترشح مرَّة واحدة، قد تكون قوية، ثم تغور وتجفّ؛ وتمرُّ الأيام فتلتحق لعبة "فراس" الجديدة بلعبه القديمة، التي جميعها عرفت نفسَ المصير، وسجَّلت نفس الاهتمام، ثم نفس اللاهتمام؛ فلم يعد لها أدنى أثر في مشاعر الطفل، ولا أقلّ إحساس بالأهمية؛ ذلك أنَّ لعبةً جديدة نزلت السوق، ورآها عند أحد أبناء جيرانه، لا شكَّ أنها أجمل وأغلى وأفضل من لعبته هو، التي لم تعد وسائل الإشهار تظهرها وتزينها كما كانت...

* * *

ثم يكبر "فراس" وتكبر معه رغبة الملكية، وتتغير عنده أساليب التملك، قد تصير أقلَّ حدَّة، ولكنها لن تكون أخفَّ محورية في نقطة ارتكاز مشاعره وعواطفه، ولقد يربط الملكية بالقيمة، وقد يرغب فيما عند المشاهير من اللاعبين والممثلين من ملبس ومركب؛ وهو في كلِّ الظروف يعتمد على والديه في تحقيق المراد، ويعوِّل على حبِّهما له لشراء الغالي والنفيس؛ ذلك أنَّ والده في عينه "على كلِّ شيء قدير"، وإذا كانت أمُّه صاحبة أجرة، فهي كذلك "قادرة على كلِّ شيء"...

ثم، تمرُّ السنون، وآخِرُ حلم يشرك فيه "فراس" والديه هو الزواج، فيعتقد أنه سيقترن بعروس كاملة، تفوق العالمين في الجمال، هدية العمر وريحانة الوجدان، لا عيبَ فيها سوى أنه لا يصبر عليها، ولا يقوى على

---

(١) دفقة التملك: مصطلح صاغه المقال، للدلالة على القوة والسرعة، التي يعقبها الزوال.

العيش من دونها، وستلد له أحسن الأطفال وأذكاهم بلا منازع، وتمنحه السعادة معتَّقة مثل صهباء ترخُص دونها المهج[١]...

ثم تدول الدولة إليه، ويكبر معه الحلم، فيخطط لوظيفة، وسيارة، ودار، وأسفار، وأجهزة، وأثاث، ومتاع... وهو في جميع ذلك يُستدرج إلى "وهم الاكتمال"، ويقول: لو أنَّ لي بيتاً، لكنت أسعد الناس؛ ثم يقدِّر الله له شراء أرض، فلا يرى فيها إلَّا أنها "نقصٌ" يحتاج إلى "مالٍ" ليتحقق بها "الاكتمال"؛ ثم يسعى لبنائها، ومع الوقت ينتهي منها، ويسكنها؛ لكنها ما إن صارت تحت ملكيته، حتى ارتوى، وأتخمه "الإشباع" الذي كان يحلم به أول مرَّة؛ فهو الآن يفكر في غيرها، أو فيها ليحسِّنها من جديد...

وهكذا مع كلِّ مقتنياته وممتلكاته ووظائفه... لا يلبث أن يحلم، ثم يحقق حلمه، ثم يبرُد في نفسه؛ ويبقى أجمل شيء في قلبه هو الذي لم يستطع أن يكتسبه، فهو محلُّ الحسرات من جهة، وهو معقِد الآمال من جهة أخرى... ويقال: إنَّ أغلى بضاعة هي التي تصطف على أرفف الدكاكين، وأرخصها هي التي تصير رهن ملكك وبين يديك. ولذا تفقد السيارات - مثلاً - ثمنها ما إن تغادر المتجر، بما يزيد على الخمْس أحياناً.

❁ ❁ ❁

هل سيجد الإنسان مطلق المتعة في شيء من أشياء حياته، أو في مناسبة من مناسبات عيشه؟

لا بدَّ أن تكون أشياء الدنيا ناقصة من جهات، حتى وإن اكتملت من جهة أو أكثر؛ فقد تكون غنياً وتقتني ألذَّ الطعام، لكنَّ مرضاً ينغِّص عليك الاستمتاع المطلق بتلك النعم؛ وقد عاينتُ أنا - حين كنتُ طالباً - رجلاً

---

(١) ولعله لهذا الوهم بالاكتمال، الذي ينتهي بخيبة الأمل، علَّمنا رسول الله ﷺ أن نكفَّ عن فرك بعضها البعض، فقال: «لا يَفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقاً رضي منها آخر».

فاحش الغنى، استضافنا، وجلس يتفرَّج فينا، نحن الذين - يومها - لم نكن نملك ما به نسدُّ رمقنا، ولا نقدر أن نشتري ضروريات الطعام إلّا بعد جهد، إلّا أننا كنّا نملك الرغبة والشهية إلى جوار عوزنا؛ جلس وهو يتفرج، فلمّا سألناه: لم لا تشاركنا المائدة؟ فقال: للأسف، المرضُ يمنعني، ومتعتي الآن أن أجد من يتمتع بما عندي.

لا شيء يبلغ مرتبة الكمال؛ ذلك أنَّ الخير في الدنيا لا يتمحّض، وأنَّ الشرَّ لا يتمحَّض؛ وقد يصدق ذلك حتى على السياسات، والمشاريع، والحركات، والثورات... حلمٌ، ثم تحقُّق، ثم اكتشافٌ للنقص، ثم برودةٌ، ثم موتٌ أو وهنٌ؛ وحين تشيخ الأفكار لا يملك الناس - ولو كان بعضهم لبعض سنداً - أن يرتفعوا بها سامقاً، أو يبلغوا بها الدرجات عالياً.

* * *

ولقد ينسى الإنسان حين يبلغ مرحلة من مراحل حلُمه أن "يشكر الله" على المرحلة؛ فـ"الشكر على المرحلة"[1] من أعظم أنواع الشكر؛ ذلك أنه يشفيك من "الذهنية الصبيانية" التي تشترط "الكلَّ أو لا شيء"؛ فأنت كلَّما شكرتَ الله على مرحلة، زادك ما به تنتقل إلى مرحلة أعلى منها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٧][2]، حتى إذا بلغتَ بالحلم إلى ما شاء الله، لم يكن ذاتُ الشيء هو المهمُّ، لكنَّ الشكر المصاحِب له هو المهمُّ[3].

---

(١) شكر المرحلة: مفهوم قد يلحق بمقال "رجل المرحلة"، ويحتاج إلى كثير من التحليل والتطوير؛ لأنه يملك قدرة تفسيرية عالية.

(٢) عطاء، فشكر، فزيادة عطاء، فشكرٌ... هكذا في حركة ولودة، ضمن دائرة صالحة، حيث الخير يولد خيراً، والشكر يولد نعمة.

(٣) لاحِظ أنَّ الشكر مقدمة للنعمة الأخروية الخالدة، وهو مربوط بالنعمة الدنيوية الزائلة؛ ولذا كان الشكر أهمَّ من ذات النعمة المشكورِ عليها. ومن ذا يساوي الباقي بالفاني.

يقول ابن خلدون في مقدمته: "أول الفكر آخرُ العمل"، فأنت حين تفكّر في بلوغ منصب، تكون هذه الفكرة "أوّل فكرك، ولكنها آخر عملك"؛ فتبدأ بترتيب الأسباب من الأدنى إلى الأعلى، سبباً سبباً، مثل درجات السلّم، إلى أن تبلغ الدرجة الأرفع، وهي المنصب المرجوُّ، ولكنها هي آخر العمل.

لو أنك قبل كلِّ مرحلة سألت الله، وعند كلِّ مرحلة استعنت بالله، وبعد كلِّ مرحلة شكرت الله، وإذا أصابك مكروه أثناء كلِّ مرحلة صبرت لوجه الله... ولو أنك ابتغيت من كلِّ مرحلة وجه الله، وطلبت معية الله، وآتيت ما آتيت بالله، ولله، وفي الله، ومن الله، ولله، وعلى الله... لا تغادر الغايةُ قلبك وعقلك وحواسك طرفة عين...

لو أنك فعلت، لكنت "عبداً شكوراً"، ولكنت من القلَّة القليلة – ضمن زمرة آل داوود – التي قال عنها ربُّ الجلال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣/٣٤]. ومؤدّى الآية الكريمة أن "اعملوا، لا لتقوتوا أنفسكم فقط، أو لتحققوا رغبات مادية وحسب؛ لكن اعملوا شكراً لله على نعمه، واعملوا لكي تزدادوا منه قرباً، ولكي يكثر الشكر وينمو فيكم، فتبلغوا مقام الشاكرين"، بنفَس نبوي عنوانه: "أفلا أكون عبداً شكوراً".

مرَّ سيدنا عمر، رضي الله عنه، برجل في الطريق، فسمعه يقول: اللهمَّ اجعلني من القليل؛ فتعجَّب عمر من دعوة الرجل، فسأله؛ فقال الرجل: سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، وأنا أرجو أن أكون منهم؛ فقال عمر متحيراً: كلُّ الناس أعلم منك يا عمر.

❁ ❁ ❁

كيف نخفِّف وهمَ الاكتمال من نفوسنا، ومن نفوس أبنائنا، وشبابنا وشاباتنا؟

وكيف نوجه حبَّ التملك لديهم، حتى لا يُطغيهم القليل ولا الكثير، ذلك أنَّا سمعنا ربنا يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧]؟

وكيف نبلغ مقام الشكر، ونكون من القلَّة، ولا نغفل عن "شكر المرحلة" لبلوغ الشكر التام الكامل المرجو عند الله تعالى؟

هي أسئلة ثلاثة، لا تنتظر الجواب، وإنما تستوجب العمل...

مسرد المصطلحات والمفاهيم العقدية والمنهجية الواردة في الكتاب

أ

الإباضية	٣٢
الأبد	١٤٢
إبطال الباطل	١٣٣
اتحاد محل الخلاف	٤١
الإجماع على الأصل	٢٩
أحاديث الآحاد	٧٣
إحقاق الحق	١٣٣
الأحقية بالإمامة	٣٥
الأحكام والصفات	٦٠
الاختزال	٦٣
اختلاف أحوال المكلَّفين	١٦
الاختيار البشريُّ	١١٥
الآخَر المسلم	١٧
الإخلاد إلى الأرض	١٥٩
الإخلاص	١٣٨
إدراك الحقِّ	١٩
الادعاء	١٤
الأديان السماوية	١٤
الإرادة	١٢٥
إرادة الباطل	١٨
إرادة الحقِّ	١٨
إرادة الله تعالى	٤١
أركان البرِّ	٢٧
الأزل	١٤٢
الأسباب	١٠
الاستحالة	٦٣
استحلال الدماء	١١٨
الاستسلام لله	٦١
استغراق الأصول العقدية	٩٤
الاستغفار	١٤٠
الاستغناء عن الأصل	٥٠
الاستلزام	٦٤
الاستناد الاستنباطي	٣٥
الاستنباط	٧٣
الأسماء والأحكام	٣٣
الأسئلة الحائرة	٦٥
الأشاعرة	٨٣
الاشتراكية	١٢٦
الإصرار	١٤٣
الأصلُ العقديُّ	١٠٠
الأصلُ العمليُّ	١٠٨

أصول الاتفاق ٣٦
أصول الاختلاف ٣٦
الأصول التسعة ١٩
الأصول الخمسة ٣١
أصول الدين ٣٠
الأصول الستة ١٩
الأصول العامَّة ٢٩
الأصول العشرة ٣٤
أصول العقيدة ٢٩
الأصول القرآنية ٦١
الأصول المذهبية ٦٠
الأصول المستحدثة ٤٧
الأصول المصرَّح بها ٣٠
الأصول غير المصرَّح بها ٩٩
اطمئنان القلوب بالإيمان ٤٢
الاعتبار الشرعي ٢٤
الاعتقاد الجازم ٤٠
إغلاق باب التفسير ١١٦
الافتراض ١٩
إفساد العقيدة ٧١
أفضل الدعاء ١٣٨
أفضل الذكر ١٣٨
أفعال الإنسان ٤١
الاقتضاء ١٤٢
إقصاء الآخر ٥٠
آل البيت ٣٥
الإلحاد ١٢٤
إلزامية التفسير ٢٤
إلغاء الثابت والمركز ١٨
إلغاء العقل ١٤٣
الإله الجديد ١٣
الإله باعتباره مفهوماً ١٢٦
إلهية المصدر ٨٩
الإمامة ٣٥
أمّة التوحيد ٢٣
امتلاك الحق المطلق ٦٩
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٣
الأمراض النفسية ١٣
الإنابة ١٤٠
الانتقائية في المنهج ٨٣
أهل الدعوة والاستقامة ٨١
أهل السنة ٨٠
الأيديولوجية ١٥٩
الإيمان ١٣٣
الإيمان بالرسل ٢٨
الإيمان بالقدر ٢٨
الإيمان بالكتب ٢٨
الإيمان بالملائكة ٢٨
الإيمان باليوم الآخر ٢٨

ب

البديهيات العقلية ١٤١
بذور الرشد ١٤١
البراءة المذهبية ٣٣
البسيط والمعقد ٦٧
بطلان الرجحان بلا مرجّح ١٢٤
البناء التراكميُّ ٣١
البناء الفكري ١٣

ت

التاريخانية ١٨
التأصيل ٢٩
التأليف العقدي ٢١
تأليه المسيح عليه السلام ١٣٣
تأليه الهوى ١٢٥
التأويل ١٣٨
تباين جهة الأمر ٣٦
التبديع والتفسيق ١٧
التبعية ٨٥
التجانس الإيديولوجي ٥١
التجانس العقدي ٥١
التجانس الفكريُّ المعرفيُّ ٥١
تجاوز حدود المذهب ١٦
التجريد اللغوي ٢٦
تحقيق المناط ٦٥
التحليل بالنماذج ٧٥
التخطّي ١١٣
التخطئة ١٣٣
تخلف المسلمين ١١٣
ترابط جزئيات العقيدة ٢٧
الترجيح ١٢٤
التسليم بالحقّ للحق ٦٠
التشبيه ٤٠
التشغيل والتفعيل ١٤١
التصديق ٣٩
التصريح ١١٩
تصنيف المكلّفين ٩٤
التصور الإسلامي للوجود ٩٦
التطاول على النصّ ٤٩
التطبيق العملي ٢٧
تعيُّن الواجب ١٧
تغييب المعيار ١٨
التفسير العقلي للغيب ١٠٢
التفكير المذهبيُّ ٥٥
التفويض ٤٨
تقليد المذهب ١١
التكليف بما لا يطاق ١٩
التلميح ١٤٢
تمثُّل القرآن ٢٠
تمحُّض الخير والشر ١٦٩
التمييز بين الأصل والفرع ١٦
التنفير من الحقّ ١٩
التنكر للمذهب ١١٤
التوبة النصوح ١٤٨
توثيق المعلومة ١٠٧
التوجه المادي الإلحادي ١٨
التوحيد ١١
توحيد الأصول ١١٧
توحيد الأفعال ٤٠
توحيد الألوهية ٩١
توحيد الخلق في الوجهة ٩١
توحيد الذات ٤٠
توحيد الربوبية ٤٠
توحيد الصفات ٤٠
التوسع في المصطلح ٩٩
التوكل على الله ١٦٣
التيسير على المؤمنين ٤٧

ث

الثقة في الله ١٦٤
الثنائية ٢٧
ثنائية الروح والمادة ٧٥

جـ

الجانب الاجتماعيّ السلوكيّ العمليّ ٦٠
الجانب العلميّ الأكاديميّ للدين ٦٠
الجبر والاختيار ٣٨
الجحود ١٢٤
الجدل ٨٣
الجدل العقيم ١٧
الجماعة ٧٠
جمهور المسلمين ٦٤
جهاد إنتاج المعرفة ٧١
جهة الاختيار ٣٦
الجواب العقلي المعرفي الإدراكي ١٤٢
الجوهر والعرض ١٦٠

حـ

حبل الله المتين ١٦٤
حجَر الفلاسفة ١٦٠
الحجر على العقل ١١٣
الحدُّ المذهبي ١٦
الحداثة ١٨
الحداثة الداروينية ٦٦
حدود التماس بين المسلمين ٢١
حركية الفكر والفعل ١٤١
حرمة دم المسلم ٨٣
الحرية ٣٨
حرية المعتقد ١٣
الحساب ١٦٤
حصن الله ١٣٥
الحفر المعرفي ١٤١
حفظ الله للإيمان ١١٣
حفظ الله للقرآن ١١٣
الحق والباطل ٢١
الحقيقة والمجاز ٧٢
حكم الله تعالى ١٤٣
الحكم على الناس بالظنَّة ١٣٧
حكمة الله تعالى ١٤٣
حلاوة الإيمان ١٣٩
الحمية المذهبية ١٦
الحنابلة ٣٤
حواجز مفاهيمية ٢٤

خـ

الختم على الجوارح ١٢٥
الخرافة ١٩
الخصوصية المذهبية ٣٦
الخطأ في الحكم ٧٤
خلق القرآن ٦٤
الخير والشرُّ ٢١
الخيِّرون ١٧
الخيرية ١١١

د

دار البقاء ١٣١
دار الفناء ١٣١
الدائرة الفاسدة ١٦٢
الدرس الحضاري ١٤١
الدرس العقدي ١٥٩
دفقة التملك ١٦٧
الدهر ١٢٥
الدهريون ١٢٥
دين الفطرة ١١٤

ذ

الذات والصفات في حقه تعالى ٤٠
الذّرية ٧٥
الذهنية الصبيانية ١٦٩

ر

الرأي في الدين ١١٣
الربانية ١٤٠
رعاية الله ١٦٣
رفض التأويل ١٨
الروح ٧٥
روح الإيمان ٦٨
روح الشقاق ٢٢
الرؤية البصرية ٤١
الرؤية الكونية ٤١
رؤية الله تعالى ٢٤
رؤية الوجود ١١٤

ز

الزمن ١٢٥

س

سترُ الله عبدَه ١٥٢
سذاجة الإلحاد ١٢٣
السعادة والشقاء الأخرويين ٣٣
سلف الأمة ٨٦
السلفية ٢٤
سماحة الإسلام ١٧
سنن الله تعالى في التغيير ١١٦
سؤال الأزمة ١٤١

ش

الشذوذ عن الأصل ٩٧
شرعية الاختلاف ١٦
شرعية القيامة ١٤٣
الشفاعة ١٣٨
الشك ١٣٧
شكر المرحلة ١٧١
الشكل والمضمون ١٥٨
شمولية الإسلام ٤٨
شمولية تصور الوجود ٩٠
شهادة التوحيد ١٣٣

شهادة الله عن نفسه ١٤٣
شيخوخة الأفكار ١٦٩
الشيعة ٨٠
الشيعة الإمامية ٨٠

ص

الصانع ١٢٦
صبغة الله ١٦٤
الصحة ١٦٠
الصدع بالحقّ ١١٤
الصدقة ١٢٧
صريح القول ١٨
الصفات الخبرية ٢٤
صفات الكمال ١٥
الصلاحية ١٦٠

ض

الضابط ٩٩
الضروري ٥٢
الضلال ٢١

ط

الطائع ١١٦
الطائفية ١٣٧
الطحالب الآلهة ١٢٧
الطلاسم ٦٣

ظ

الظاهرة ١٢٦
الظنّة ١٣٧
ظني الثبوت والدلالة ١٩

ع

العادات المشروطة ٣٦
العاصي ١٧
العالم الجواني ٦٤
العالم السفلي ١٣١
العالم العلوي ١٣١
عالم الملكوت ١٥٤
العبادة الحضارية ٩١
العبادة الفردية ١٢٩
العبثية ١٨
العجز عن الإدراك ١١٤
العدل ٩٩
عدم الاختلاف في الأصل ٩٦
العذر ٩٨
عرض التوحيد ١٩
العصبية المذهبية ١٦
عصمة الإمام ٣٥
العقل والنقل ٧٢
العقيدة ٧١
عقيدة التثليث ١٤٤
العلاقة التراتبية ١٤٢
العلاقة التلازمية ١٤٢

العلاقة السببية ١٤٢
العلاقة الشرطية ١٤٢
العلم ١٢٨
علم الكلام ٩٩
علم الله تعالى ٩٨
العلم النافع ٧١
علم اليقين ١٣١
العلمانية الشاملة ١٣
العلموية ١٢٨
العمل ١١٠
العمل الصالح ١١٣
عناية الله ١٦٣
عوارف المعارف ١٤٢
عين اليقين ١٣١

غ

الغاية ١٦٢
الغرور المعرفي ١٤٣
غيرة الله تعالى على عبده ١٥١

ف

الفاسق
فاعلية العقيدة ١١٤
فتنة استسهال سفك الدماء ١٣٧
الفراغ الكوني ٦٤
الفُرقة المذهبية ٢٤
الفِرقة الناجية ١١٨
فروع العقيدة ٧٤
الفصل بين الأصل وتفسيره ٥٠
الفطرة ١٤
الفعالية ١٦٠
فقه التحيز ٧٥
فقه الحضارة ١٤٦
الفكر الإسلاميُّ ٢٣
الفوضى ١٨

ق

قاعدة المذهب ٨١
القداسة ٥٨
القدر ٤٨
القديم والحادث ٢٠
القراءة التوحيدية ١٠٣
قطعي الثبوت والدلالة ٥٧
القطعي والظني ١٦
القواعد الفقهية ١١١
القواعد الكلية ١٤١
القول في الصحابة ٨٢
قيام الحجة ١٦
القيمة ١٦٧
القيومية ١٤٣

ك

الكسب ٨٢
الكفاءة ١٦٠
الكفارة ١٣٦

ل

لا منزلة بين المنزلتين ٣٤
لازم القول ١٨
اللامذهبية ١١٣
لزوم الحجة ١٥
لغة المنطق ١٤٢
اللفظية ٧٥

م

ما اتفقت عليه الأمة ١١٦
ما اختلفت فيه الأمة ١١٦
ما بعد الحداثة ١٨
ما حُكمه الفور ١٥
ما لا يدرك ١٤٢
ما لا يسع جهله ٢٢
ما يجوز فيه الاختلاف ٨٤
ما يضيق وما يتسع ١٦
الماتريدية ٣٤
المادة والروحية ٧٥
المادية ١٢٨
الماقبل ١٢٧
الماهية ١٦١
مبادئ العقل ١٢٤
مبدأ العلية ١٢٤
مبدأ الغائية ١٢٤
مبدأ عدم التسلسل ١٢٤
مبدأ عدم التناقض ١٢٤
مبدأ عدم الدور ١٢٤
المبلِّغ ١٥
المتن العقديُّ ٣٤
المحكم والمتشابه ٧٢
المحورية المركزية ٢٠
مخاطبة الناس بما يفهمون ٩٠
المخالف للمذهب ٣٠
المخلوق ٨٨
المدارس الإسلامية ٩٧
المذهب ٨١
مذهب أهل الحديث ٣٤
المروق من الدين ٥٨
المسائل الخلافية ١٩
المسلَّمات العقدية ١٤١
مشكلة الاستقراء ٧٢
مشكلة الحدِّ الفاصل ٧٥
المشكلة الحضارية ٦٩
مشوَّه الفطرة ١٥
مصدرية الأصل ٢٩
مصير الإنسان ٢٠
مصير صاحب الكبيرة ٣١
المضامين الشرعية ٨٦
المضنون به على غير أهله ٦٠
المضيِّع ١٧
المطلق ١٢٦
المعبِّر ١٥
المعتزلة ٨٢
المعتقد ٢١
معضلة المنهج ٧٥
المعقول ٢٩

المعنى ١٢٤
معيار التميز ١١٣
المعيار المنهجيُّ ٢٦
معيارية التأصيل والوضوح والإجماع ١١٢
معية الله ١٦٣
المغالطة ١٦٤
مقام الإجابة ١٤٦
مقام الاستجابة ١٤٦
مقام الألوهية ١٣٢
مقام الترابية ١٣٢
المكلَّف ٤٧
المكوِّن الأرضي ١٥٨
الملل والنحل ١٧
المنافق ٣٣
مناهج الاستدلال ٧٢
المنزلة بين المنزلتين ٣٤
المنطق الأرسطي التقليدي ١٩
منطق اللغة ١٤٢
منطق الوجود والحقيقة ١٤٢
منطقة الوسط بين المذاهب ٩٠
المنطقي ١٤٢
المنظور الأخلاقي ٦٢
المنظور الشرعي ٦٢
المنظور المنهجي ٦٢
المنظومة التربوية ١١٧
منهج الإلزام ١٨
المنهج البنائي ٧٩
منهج التبرير ١٠٨
منهج التصيُّد ١١٨
منهج التعامل مع الوحي ٢٣
منهج التغفيل ٦٥
منهج التفسير ٣٢
المنهج القرآني الراشد ٢٢
المنهج والموضوع ١١٣
موت الأفكار ١٤٢
المؤتلف والمختلف ٧
الموروث التراثيّ العقديّ ٥٣
الموسَّع والمضيَّق ١٧
الموضوع العلمي ١٢٦
الموفِّي ١٧
المؤمن ٨٧
الميتافيزيقا ١٢٦
الميراث الفكري ٦٠

ن

الناجي والهالك ١١٥
نافلة العلم ١٦
نزعة التحرُّر ١٥٩
النزعة المذهبية ١٦
النسخة المشوَّهة من الإنسان ١٨
نسيج المجتمع ٩١
النص والمفسِّر ٢٤
النطق بالشهادتين ٤٧
النظرة المذهبية ٣٦
نظريات الفوضى ١٨
نظرية التطور ١٢٧
نظرية الخلق ١٤٤
نظرية المعرفة ٤٦
نظرية الوجود ٤٦

النعيم المقيم ١٤٠
نفي الإله ١٤
النهاية ١٢٥
نهاية المعنى ١٨
النهج المكّي ١٧

هـ

الهوى ١٢٥

و

واجب الناس نحو ربهم ٥٧
الوجدان ١٤٢
وجهة النظر ٥٨
الوحدانية ١٣٨
وحدة الأحكام ٥٢
وحدة الأمة ٨٦
وحدة المصدر ٨٩
الوسيلة ١٦٢
الوعد والوعيد ٣٤
الوفاء ١٨
الوقت ١٢٥
الولاية والبراءة ٣٣

مستخلص

يقدم المؤلف في هذا الكتاب قضايا حول مسألة الإيمان التي هي صلة بين العبد وربه من خلال مقالات عدّة.

صدَّر المؤلف كتابه بسؤال: هل الإيمان ضروري للحياة؟ ولما كان الجواب بالإيجاب بدأ بتقديم عرض جديد للتوحيد، مؤسس على المتفق عليه بين المسلمين، لينطلق منه؛ فتحدث عن ضرورة توحيد أصول العقيدة لتحقيق وحدة المسلمين، التي لن تتحقق إلا بهذه الوحدة.

وانتقل بعدئذ ليتناول مسألة المنهج الذي يسير عليه المسلمون وتصورهم عنه مما أدى إلى اختلافهم فيمن هو على الصواب، أو على خلافه... كما أدى إلى تصورهم عن حقيقة الفرقة الناجية.

وتابع المؤلف ليتحدث عن العقيدة التي تؤدي إلى ترسيخ وحدة الأمة، والأصول العقدية التي تدفع إلى تلك الوحدة.. وبحث في القواعد الكلية لذلك المنهج العقدي؛ محذراً من الأخطاء التي يقع فيها هذا المنهج بسبب مصادر علم الكلام.

وختم المؤلف كتابه بقضايا أخرى في أصول الإيمان، جعلها تحت عناوين: سذاجة الإلحاد، الطحالب الآلهة، لا إله إلا الله الكلمة الطيبة، لا إله إلا الله في عين الرسول صلى الله عليه وسلم، لا إله إلا الله حقيقة المعرفة وأصول الوجود، يا ساهر الليل.. قم الليل، الطفل والمدينة، متى تخلف المسلمون؟ الخوف المتأرجح، وهمُ الاكتمال وحب التملك.

ألحق بالكتاب مسرد المصطلحات والمفاهيم العقدية والمنهجية.

بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظراً لسرعته وفعاليته وقلة كلفته.

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقماً تدخله من خلال موقع الدار، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات، ويصبح لك رصيدك من النقاط، وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية، و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب.

هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم.

بتواصلك معنا، نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع.

500 3716375 9500

أصول الإيمان

THE FUNDAMENTALS OF FAITH
Monotheism and the Nation's Unity

Uṣul al-Īmān
Al-Tawḥīd wa-Wiḥdat al-Ummah
Dr. Muṣṭāfá Wīntin Dr. Muḥammad Bābā'ammī

حوى الكتاب في شطر منه دراسة " أصول الإيمان" التي عليها تُبنى الوحدة، وبحث كيفية رجوع الأمَّة إليها باعتبارها سبباً للوحدة "ونحن في ذلك نقرُّ بتقليد المذهب في الفروع، لا في الأصول؛ ونعتبر المذهبية دليلاً على سماحة الإسلام، وعلى سعته؛ لا حجَّة على تشتُّت الدين وأهله"، ونفرِّق بين " أصول الدين" الجامعة، و " أصول المذهب" المشروعة.

ولقد تضمَّن الكتاب في شطره الثاني " مقالات في تحليل واقع الأمَّة"، وموقفها من أصول إيمانها، من خلال دراسة نماذج من التصرفات والتصورات، وتقديم تصحيح لها، في حدود السجالِ العلميِّ، تحت راية الفكر السمح المنفتح على التداول والحوار.

كما تضمن الكتاب "قواعد كليَّة" منهجية في التعامل مع البحث العقديِّ، وحصراً لجملة من " الأخطاء المتعلقة بالمنهج" عند دراسة العقيدة وعلم الكلام، واختتم "بمسرد مفاهيمي" في الموضوع.

ISBN-978-9933-36-001-6
9 789933 360016

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الدكتور محمد بن موسى باباعمي
المكتبة الوقفية

Drbabaammi.com